mevr_hanan

HARLEQUIN

روايات احلام

البحر وأسرار أخرى

ساندرا فيلد

Rewity.com

البحر وأسرار أخرى

ـ أتساءل أحياناً ماذا يعرف أحدنا عن الآخر... كلانا يخفي أسراره وكلانا يعرف ذلك... من سيكون أول من يفشي السر يا لورا؟

لن تكون لورا الأولى... فهي قد هربت الى هذا المكان النائي لتخفي سرها، ولن تخبر هذا الغريب أنها قد ربحت مليون دولار، وأنها قد لاذت الى هذا الكوخ هرباً من أطماع الناس فيها بمن فيهم حبيبها...

وتتوالد الأسرار على الشاطىء النائي... من تراه هذا الرجل الغامض الذي هل عليها من الضباب وأنساها حباً دام ثلاث سنوات؟ وكيف تحبه بعد أن أدركت أنه يكذب عليها منذ البداية؟

لكن تشارلز كالبحر... في أعماقه كنوز خفية، وعلى وجهه هدوء خادع. وبدورها بنت لورا حولها أسواراً عالية.

من تراه سيكشف النقاب عن أسرار الآخر؟ وماذا ستفعل لورا عندما ترى أن أسوارها كلها مهددة بالسقوط؟

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.
سوريا: ٧٥ ل.س
الأردن: ١،٥٠ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الامارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ دراهم

البحرين: ١ دينار
السعودية: ١٠ ريال
مصر: ٥ جنيه
المغرب: ١٥ درهم
تونس: ٢ دينار
عمان: ١ ريال

ISBN:9953-15-011-7

9789953-15-011-6

١ ـ امرأة بمليون

حامت ثلاثة طيور نورس، حول مجموعة من الطحالب، رماها المد على الشاطىء. لكن، ما إن تقدم الرجل إلى الصخور، حتى ارتفعت الطيور إلى الجو، بضربات ثقيلة من أجنحتها، وكأنها تلقت إشارة واحدة.

وقف الرجل جامداً، يراقب الطيور فوق الماء... بدت مخلوقات من عالم آخر، موشحة بلون ذهبي خفيف رسمته شمس هذا الصباح الباكر..

بدأ يركض فوق الرمال.

إنه معتاد على الوحدة. لكن وحدته كانت في سنوات عمره الأولى، وحدةُ روح لا جسد. فطالما انتشر الناس حوله حين كان أبوه إلى جانبه. كانوا إما يقبضون أجورهم ليعتنوا به، أو يجرون وراء مطامعهم الخاصة. وكانت النتيجة أن تغلغل هو أكثر إلى أعماق ذاته... خلال الأشهر القليلة الماضية، روّح عن نفسه في أحياء بومباي الفقيرة، وفي جبال النيبال، كما حفل قلبه بالفخر حين استطاع أن يبقى حياً.. لكنه حفل أيضاً بالوحدة، وبتوق مبهم إلى إنسان آخر يسير معه على الشاطىء... إلى امرأة.

لم يكن في ذهنه صورة واضحة لها.. كان يعرف فقط أنهما سيضحكان معاً ويتحدثان سوية، ويثبان بمرح في الأمواج. ثم يعودان إلى الكوخ، حيث ستزيل الفراغ من فراشه والوحدة من قلبه..

وصل إلى نهاية الشاطىء حيث ظهرت الصخور الرمادية في البحر.. فاستدار، وعاد راكضاً من حيث أتى. كان يجري بسرعة فائقة حتى غمر العرق

صدره العاري . . إنها وهم . . هذه المرأة المجهولة، التي قد تتقبله كما هو . . هكذا يقول المنطق . . ولإثبات ذلك، بقي الشاطىء فارغاً تحت الشمس وكأنه يضحك منه بسخرية .

* * *

حين دخلت جاين إلى المطبخ، وجدت لورا جالسة إلى الطاولة، ورأسها مدفون بين يديها . . كانت تنتحب بشدة وكأنّ قلبها تحطم .

ـ لورا! ما الأمر؟

رفعت لورا وجهها المبلل بالدموع، ثم قالت وهي تشهق: «أوه . . جا . . جاين . . أنا . . أنا لم أسمعك حين دخلتِ» .

ـ لقد قرعت الباب . . ولكنني لم ألقَ جواباً .

ثم كررت جاين السؤال بصبر: «لورا . . عزيزتي . . ما الأمر؟» .

أجابتها ببأس: «إنه بارت . . لقد طلب يدي» .

ومزقت شهقة فظيعة حنجرتها .

تساءلت جاين بهدوء: «ألست سعيدة أنه طلب يدك؟ أنت تحبينه منذ سنوات» .

ـ لكن لماذا انتظر حتى الآن؟ لماذا لم يطلب يدي قبل أن يسافر؟

صححت لها جاين كلامها بلطف: «أنت تعنين قبل أن تربحي المال؟» .

وثبتت عينيها الزرقاوين على وجه لورا المضطرب بمزيج من الحب والقلق .

ـ هذا صحيح!

أخرجت لورا منديلاً ورقياً مجعداً من جيبها، ونظرت إليه بارتياب، ثم مسحت عينيها، لكن الحركة لم تصلح كثيراً من مظهرها .

ـ لن أعرف أبداً هل طلب يدي لأنه يحبني أم لأنني ربحت مليون دولار . . أليس كذلك؟

انهمرت الدموع مرة أخرى من عينيها البنيتين القاتمتين .

ـ جاين . . سأقول لكِ أمراً فظيع . . لكنني أحياناً أتمنى لو أنني لم أربح ذلك المال قط . . لقد تغير كل شيء!

ـ وهل عاد دارين للتحامل عليك؟

ـ أوه . . أجل . . يوماً بعد يوم . . اليوم، التقيت رئيس مجلس إدارة المدرسة في البلدة، وطلب مني أن أخصص مالاً لمنحة مدرسية . وبالأمس، كان دور مجلس إدارة المستشفى . . حتى القسيس يلاحقني . . يقول إنه من واجبي أن أدفع مالاً لدهان الكنيسة . . خمس رسائل كلها تطلب المال .

التوى فمها بابتسامة قلقة: «لا يطلبون، بل يأمرون . . أما الرسالة السادسة فمنافية للعقل تماماً» .

استقامت جاين في جلستها، حتى لامست الشمس شعرها بخصلاته الرمادية، ووجهها الرضي بسنوانه الأربعين . . لقد كانت صديقة لورا منذ أربع سنوات . . منذ جاءت لورا إلى هذا المنزل القديم المتداعي لتعتني بأولاد أخيها الثلاثة: دارين، كيث، وسوآن .

قالت جاين بحزم: «لقد آن لك أن تبتعدي من هنا لفترة ما» .

ـ إلى ماذا يؤدي هذا؟ سأضطر إلى العودة .

ـ أنت تعجزين عن رؤية الحقيقة الواضحة هنا . . فكري بكل ما يمكنك أن تحققيه بهذا المال . . يمكنك أن تدفعي مصاريف تعليم الأولاد، وتعليمك أنت كذلك . . ويمكنك شراء منزل في تورنتو في السنة القادمة إذا أردت . و . .

توقفت هنيهة ثم سألت: «ماذا قلت لبارت؟ نعم أم لا؟» .

ـ لم أقل شيئاً .

ووقفت عن الكرسي، ثم تقدمت نحو النافذة، وهي تدير ظهرها لجاين: «استخدمت خدعة الفتاة المحتشمة الفيكتورية الطراز . . وقلت: أوه بارت، لقد فاجأتني!» .

دست يديها في جيبي الجينز: «وأية مفاجأة . . هه! نحن نتواعد منذ ثلاث سنوات» .

استدارت فجأة نحو صديقتها، والبؤس الحقيقي يرتسم على فمها:

ـ قال إنه يحبني . . وإنه يريد الزواج بي في أسرع وقت ممكن . . وإننا انتظرنا وقتاً طويلاً جداً . . أنا . . أنا . . ليتني أصدقه . . أوه يا إلهي . . لِمَ لم يطلب مني

هذا قبل شهر؟

قالت جاين بهدوء: «تظنين أنه طلب يدك لأنك ربحت في اليانصيب».

أخفضت لورا نظرها إلى الأرض، وتمتمت: «أجل.. أعتقد ذلك».

لم تكن جاين شديدة الإعجاب ببارت، لكنها أرادت أن تواسي صديقتها.

ـ لقد ابتعد عنك لأكثر من شهر، بسبب محاكمة عائلية في مونتريال.. لعله أدرك حقيقة شعوره بينما كان بعيداً.. فالبعد يجعل القلب أكثر ولعاً.. أو هكذا يقال.

ـ ربما.

لكن لورا لم تبدُ مقتنعة، بل هزت كتفيها بيأس.

ـ هل ستلتحقين بمدرسة الطب لو تزوجته؟

ـ أوه.. أجل.. قال إنه يستطيع أن يمارس المحاماة في هاليفاكس. وهكذا، أنتقل إلى دالهاوسي ما إن تنهي سوآن دراستها في الصيف القادم.

ـ إنه مجامل جداً.. على أي حال، لقد عاش هنا طوال حياته، وهو محامي البلدة الأوحد.. ولسوف يتنازل عن الكثير.

فكرت لورا بمرارة: «مليون دولار.. مال كثير».

عضت جاين شفتها: «أتعلمين.. لقد عنيت كلامي.. يجب أن تبتعدي لفترة.. ستنتهي المدرسة في الأسبوع المقبل.. ولا أجد سبباً يمنعك من السفر لثلاثة أو أربعة أسابيع.. لِمَ لا تحجزين تذكرة سفر إلى تورنتو.. أقيمي في فندق لطيف، اذهبي للتسوق.».

ـ لا!

قالت جاين ساخطة: «أنت تخافين من تورنتو.. أعرف أنك ما زلت تشتاقين إليها.. وأنا واثقة أنك غالباً ما تعدين الساعات حتى تعودي إلى هناك.. لكن هذا لا يمنعك من زيارتها».

نظراً للصداقة الطويلة التي تربط لورا بجاين، تجرأت تلك على القول:

ـ كفي عن التذمر، جاين.. لن أذهب إلى تورنتو.

تهلل وجه جاين: «يمكنك الذهاب إلى كاب بريتون. لدي هناك..».

ـ لا أريد الذهاب إلى أي مكان.

ـ بلى.. تريدين.. أنت بحاجة إلى الابتعاد عن دارين وكايث وسوآن.. عن كل الأصدقاء وموسيقى الروك، ووظيفتك والمخابرات الهاتفية والرسائل و.. وعن الكنيسة التي تحتاج إلى دهان.

ـ أنت تعرفينني جيداً.

ـ أنت تضخمين من مسؤولية واجباتك... هذه أنت. وهذا ما أحبه فيك. أعرف أن السنوات الأربع الأخيرة لم تكن سهلة عليك.. أما الآن فلم لا تغلين الماء وتعدين لي فنجاناً من الشاي، بينما أخبرك لماذا يجب أن تذهبي إلى كاب بريتون في الأسبوع المقبل؟

قطعت لورا الغرفة لتلتقط الغلاية عن الفرن. كان المطبخ كبيراً، وكانت المائدة مليئة بمختلف الأصناف والأشكال مما أضفى على المكان لمسة بشرية... أما النافذة، فتطل على ستين آكر من بساتين التفاح. ويواجه المنزل الشارع الرئيسي للبلدة الصغيرة «غرانتهام».. عاشت لورا في بيت أخيها المتوفي هذا لأربع سنوات.. وأعجبت بالهدوء الذي يحيط بها، وبسير الحياة البطيئة، لكنها لم تشعر قط أنها تنتمي إلى غرانتهام، أو أنها ستنتمي إليها يوماً.

غمرت وجهها بالماء البارد، ثم جففته بمنشفة قبل أن تملأ غلاّية الماء.. ثم قالت: «أنا أكره النساء الباكيات.. آسفة».

ـ لا بد أن يبكي المرء بشدة من وقت إلى آخر.. كان بارت عزيزاً عليك.. أليس كذلك؟

ابتسمت لورا بمحبة: «أجل.. كلاكما أبقاني متماسكة في السنوات الأخيرة.. أعتقد أنني رأيت في بارت شخصاً قادراً على إخراجي من غرانتهام إلى مكان أستطيع فيه أن أتلقى تعليماً عالياً.. لذا عرفت أن الأمر يستحق العناء..

غيرت جاين الموضوع متعمدة: «الشقيقتي كوخ قرب مصب ميراريفر.. على المحيط تماماً.. جميل وهادىء جداً. وصلتني اليوم رسالة منها تقول إنه سيكون فارغاً طوال شهر تموز.. إنه القدر لورا.. لم لا تذهبين إلى هناك لمدة شهر؟ ستكون فرصة للتفكير بكل هذا المال.. وسترتاحين من الأولاد.. وتقررين

ذلك هل بارت رجل حياتك أم لا».

قالت لورا حالمة: «دون مراهقين صاخبين؟».

ـ ولا موسيقى الروك.

ـ تابعي الكلام.. أنت تغريني.

فرفعت جاين أصابعها: «لن تحضري ثلاث وجبات في اليوم.. لن تغسلي أو تكوي أو تنظفي.. ولن تعملي في المستشفى».

ـ قد آخذ معي كتبي لأدرس حتى أستعد لامتحان الدخول في مدرسة الطب.

ـ بل اتركيها هنا ولا تفعلي شيئاً! لن يضيرك هذا أبداً. إنه مكان مميز جداً.. لا يجاوره إلا كوخ آخر على شبه الجزيرة.. اذهبي.. وسأهتم بالمنزل في غيابك.

بدأ الماء يغلي في الغلاية، فأعدت لورا الشاي، وهي تتخيل عزلة الشاطىء الغارق بأشعة الشمس. إنه بعيد جداً عن هنا.. كم تود لو تسافر.. لقد واجهت العديد من المفاجآت في المدة الأخيرة.. تغيرت حياتها كثيراً حتى ضاع التوازن منها. أما بارت فليس إلا جزءاً من المشكلة.. ولو أنه جزء مهم جداً.. فكرت بصوت مرتفع، : «بغير المال كل شيء. لم أعد أتقبل نفسي، منذ ربحت اليانصيب. وأنا لا أعتبك أنت ودايف. لا تسيئي فهمي يا جاين. كما لا أعني كايث وسوآن. لكن الجميع تقريباً، يريدون مني شيئاً.. هذا إحساس مريع».

ـ مليون دولار، مبلغ ضخم.. إنه رقم سحري. أليس كذلك؟ مليون دولار.. حلم كل إنسان.

ـ وأنا التي ربحته بالورقة الوحيدة التي اشتريتها في حياتي.. ولقد اشتريتها كمزحة.

قالت جاين بثبات: «ولم تنعكس المزحة عليك. سوف تسافرين إلى مكان لا يعلم فيه أحد أنك ربحت كل هذا المال.. وستفكرين بكل ما سيدره عليك من أرباح. ثم تعودين إلى المنزل مرتاحة، مسترخية وقادرة على مواجهة مجموعة رجال مثل بارت».

ظهر الأسى في عيني لورا:

ـ من الرائع أن أعيش مجهولة لفترة. لقد علمني طلب بارت شيئاً واحداً:

سأبقى دائماً أتساءل من يمكن لأحد أن يحبني لنفسي.. لا لمالي.. وهذا تفكير مخيف.. أليس كذلك؟

قالت جاين بغموض متعمد: «لا أظن أن هذه المشكلة ستصادفك في الكوخ.. حين أقول هدوء وسلام.. فأنا أعني هذا حيي».

ردت لورا بخفة: «هذا أفضل... على أي حال، ما زلت أحب بارت».

ـ حقاً لورا؟ أتحبينه حقاً؟ أم أنك تظنين هذا لأنه، ببساطة، الرجل المناسب الوحيد هنا؟

ـ بالطبع أحبه! لماذا تعتقدين إذاً أنني منزعجة لأنه لم يطلب يدي قبل الآن؟ لو لم أكن أحبه، لما اهتممت.

ـ حسن جداً.. ربما.. لكنك تفيضين جمالاً وإشراقاً. ستكون خسارةً لو دفنتِ نفسك في مكان صغير مثل غرانتهام.. سأكون صريحة جداً معك... لا تتزوجي بارت، إلا إذا كنت واثقة تماماً من مشاعرك، أتعديني؟

قطبت لورا جبينها بانزعاج: «هذا ما أعتقده.. لقد ظننت أنني الوحيدة التي تتلاعب بها الشكوك».

قالت جاين: «حين التقيت دايف، زوجي، عرفت على الفور أنه الرجل الذي سأتزوجه.. ولم يساورني الشك إطلاقاً».

قالت لورا باقتناع: «أعد ألا أتزوج بارت إلا إذا تأكدت أنه مناسب لي تماماً كما تأكدت أنتِ من دايف».

ـ عظيم.. لمَ لا تصبين الشاي؟ تعرفين أنني لا أحبه قوياً جداً.

فتحت لورا علبتي البسكويت فوجدتهما فارغتين.

ـ أما من شيء يغريك حتى تتوقفي عن حميتك؟ انظري إلى كيث، إنه يأكل كلما كان حزيناً.

كان كيث أصغر أولاد أخيها. بلغ التاسعة عشرة من عمره، وهو في السنة الجامعية الأولى في كلية التجارة، لكنه لم يلقَ أي نجاح يذكر.

حركت جاين الشاي: «ألم يستفق بعد من صدمة الرسوب في مادتين الشتين؟»

ـ بل يريد دراسة الموسيقى بدلاً من التجارة.

ـ هذا تغيير كامل.. ! غناء؟ لا تبدين سعيدة لهذا.

ـ لطالما تمنى والده أن يدرس التجارة ويعمل في المصارف.

ـ والده مات لورا.. منذ أربع سنوات.. لا يمكن أن يرتبط كيث بتوقعات إنسان لم يعد موجوداً. تعرفين بنفسك أن أخاك جايمس كان يفضّل كيث على ولديه الآخرين، لأنه ذكي في علم الحساب. كان كيث وريثه الوحيد، وبدا أنه سيصبح وسيط أسهم أو مستشار استثمار أو على الأقل مدير مصرف في المدينة.. لم يكن جايمس يفكر بدارين أو سوآن. فدارين ليس ناجحاً في المدرسة.. وسوآن فتاة.

رفعت لورا حاجبيها مستنكرة: «أنت صريحة جداً».

ـ أعرف أنه لا يجدر بي أن أسيء الكلام عن ميت... صحيح أن له الكثير من المميزات، لكنه لم يكن يراعي مشاعر أولاده يوماً.

ـ أنت على حق.. أعرف.. لكني حاولت جاهدة لأبعد كيث عن الموسيقى. ظننت أنّ عليّ أن أتبع رغبات جايمس.. لطالما وقف عقبة في وجه طموح كيث.

ـ كيث يشبهك أكثر. إنه ذكي وطموح.. لكنه ليس مضطراً إلى السير على خطى والده.. إضافة إلى هذا، بإمكانك أن تدفعي رسوم دروس الموسيقى الآن.. أليس كذلك؟

مالت جاين إلى الأمام، وهي تريح يدها على معصم لورا.

ـ بعد سنة من الآن، ستتخرج سوآن من المدرسة الثانوية، وستصبحين حرة لورا.. حرة. وستعودين إلى تورنتو وتكملين حياتك من حيث تركتها.

كانت جاين الإنسانة الوحيدة في غرانتهام التي تتفهم لورا لا بل هي تتفهم المشقة التي تتكبدها في حضانة أولاد جايمس الثلاثة. كانت لورا في الواحد والعشرين من عمرها، تخرجت من جامعة تورنتو بدرجة الشرف في الكيمياء الطبيعية، وقُبلت في برنامج طبي رفيع الشأن هناك.. ثم مات جايمس، بنوبة قلبية، مخلفاً وراءه دارين، كيث، وسوآن أيتاماً.. وقد سبق لأمهم أن توفيت جراء مرض السرطان. كان أقارب أمهم يعيشون في ساسكاتشوان، لكنهم لم يبدوا

أي اهتمام برعاية الأولاد الثلاثة.. ولأن والدا لورا كانا طاعنين في السن، اضطرت إلى المجيء إلى غرانتهام بصفتها شقيقة جايمس الوحيدة، وهكذا بقيت فيها.

تمتمت لورا: «حتى ولو تزوجت بارت، سأتمكن من الالتحاق بكلية الطب».

تناهى إليهما وقع أقدام على الشرفة الخلفية، وصُفق باب، ثم انفتح باب المطبخ بعنف ودخلت سوآن مسرعة.

ـ هاي جاين! لورا إحزري ماذا جرى؟

قالت لورا على الفور: «طلب منك ستيفن أن ترافقيه إلى حفلة الرقص الرسمية».

كان الاكتئاب قد أصاب ابنة أخيها منذ تعرفت على ستيفن غارسون قبل ثلاثة أسابيع.

رمت سوآن كتبها على الطاولة.

ـ كيف عرفت؟ أليس هذا أمراً رائعاً؟

وأخذت ترقص في مكانها: «إنه فاتن.. وأنا مجنونة به.. كمعظم الفتيات في صفي.. لكنه اختارني أنا لأرافقه إلى الحفلة الراقصة.. أوه لورا، أيمكن أن أحصل على فستان جديد؟».

كانت القناعة واحدةً من أفضل مميزات سوآن. فهي طفلة حلوة الطباع، لم تتغير بتغيُّر حظ لورا المفاجيء، ولم تطالب بشراء متجر فساتين بأكمله.

ردت لورا: «قد نشتري فستاناً جديداً.. سنذهب لتتسوق في هاليفاكس، في نهاية الأسبوع إذا أردت».

ـ رائع!

وحضنت سوآن لورا، ثم أخذت تدور راقصة.

أنهت جاين الشاي.

ـ من الأفضل أن أذهب.. لقد قلت لدايف إنني سأعود في التاسعة والنصف. ثم سأتصل بشقيقتي لأخبرها أنك ستذهبين إلى الكوخ، كل ما عليك فعله هو

وضيب حقيبتك . .

- جاين، لكنني لم أقرر بعد.

- لقد قررت عنك، ولا تدعي دارين يقنعك بالبقاء.

ارتدت جاين سترتها الصيفية الخفيفة وقبّلت لورا.

بعد رحيل جاين، جلست لورا إلى طاولة المطبخ ويداها تحيطان بكوب الشاي. . كانت سوآن تسمع شريطاً في الستيريو في غرفة الجلوس، وقد ارتفع ضجيجه وكأنه ضربات قلب بدائية.

كانت سوآن فتاة رقيقة. . أرادت منذ الخامسة من عمرها أن تصبح ممرضة. . فتطوعت في المستشفى المحلي، ونالت دائماً علامات مرتفعة في المدرسة الثانوية. .

حين تطلعت حولها في المطبخ، لم تستطع إلا أن تتذكر ما جرى منذ أربع سنوات. . كان جايمس قد مات بينما لورا تقدم آخر امتحان لها لدرجة البكالوريا. . لذا لم تستطع حضور الجنازة. . ووصلت غرانتهام بعد أسبوع في حافلة المساء القادمة من هاليفاكس، ثم توجهت فوراً إلى المنزل. كان الأولاد الثلاثة في المطبخ، مصطفين جلوساً على رف المغسلة، وظهورهم إلى الحائط. فقررت لورا بشيء من المرح أن تشاركهم في ذلك. . كان دارين في السادسة عشرة، متحجر العينين مليئاً بالغضب. . أما كيث الذي يصغره بسنة، فبدا متحفظاً في حكمه، فيما وجهه النحيل الذكي شديد المراقبة. لكن سوآن ابتسمت ابتسامة خجولة مترددة، للعمة التي قابلتها ثلاث مرات في حياتها فقط. . ثم قالت لها: «لن تأخذينا من هنا. . أليس كذلك؟ لا تريد أن تذهب إلى تورنتو. . نريد أن نبقى في غرانتهام».

تنهدت لورا. . وبقوا جميعاً في غرانتهام، الأربعة. . . ماذا تفعل غير ذلك؟ ومع أن دارين بقي ساخطاً، إلا أن كيث أحبّها أخيراً. . بينما أصبحت سوآن صديقتها المفضلة. . صبت لنفسها فنجان شاي آخر ثم ذهبت تفتش عن أوراق الكتابة، وهي منزعجة من الضجيج الصادر عن غرفة الجلوس.

كانت جالسة إلى طاولة المطبخ تكتب رسالتها الأسبوعية لأبويها حين عاد كيث بعد ساعة، وشعره الأحمر مشعث، ووجهه ينضح بالإثارة.

قال: «هل تذكرين أنني أرسلت شرائط مسجلة لصوتي إلى تورنتو؟ لقد حصلت على موعدين للتجربة. . اثنين لورا! أحدهما في بسكاغليا، وهو أفضل معلم في كندا. . لورا، لو أقرضتني أجرة السفر، فسأرد لك المال في نهاية الشهر. . حين أقبض مرتبي الأول».

وضعت لورا القلم من يدها بحذر: «ماذا لو قُبلت هناك، فهل تتخلى عن برنامج كلية التجارة؟».

- أجل. . سأضطر لهذا. . أعرف أن أبي أرادني أن أكون مدير مصرف مثله. . لكنني سأموت إذا سجنت في مكتب. أريد أن أغني لورا. . وإذا قبلوني في بسكاغليا، قد تُتاح لي فرصة للنجاح.

كيف تجادله. . وهي الطموحة المنحرفة مثله؟ بين أولاد جايمس الثلاثة، كان كيث الأكثر شبهاً بها. . فإن حرمته الغناء، فقد يعاني الإحباط الذي أحست هي به، وما زالت تحسه، منذ غادرت تورنتو. . لقد أنتزعت من الحياة التي أحبتها. . جاين على حق، لا يمكن أن تفرض توقعات أب ميت على أبنائه الأحياء.

قالت: «سأقرضك المال. . متى ستذهب؟».

بعد أن زفر كيث تنهيدة ارتياح طويلة، أدركت لورا أنه كان يحبس أنفاسه متوقعاً الرفض: «بعد ثلاثة أسابيع».

ثم تذكرت أنها اتخذت قراراً بالسفر كذلك.

- لن أكون هنا. . لكن اتصل بي ما إن تعرف النتائج.

غمز لها كيث: «أمسافرة مع بارت؟».

ردت بوقار شديد: «لا. . أنا ذاهبة إلى كوخ شقيقة جاين في كاب بريتون. . وحدي».

قطب جبينه: «لا يبدو لي هذا مسلياً. . هل أنت بحاجة للابتعاد عن الضجيج الذي أثير حول المال؟».

- لقد أصبت الجرح.

- تمتعي بوقتك. . هل يعني هذا أننا سنكون هدفاً لروائع طبخ سوآن؟

ردت لورا بابتسامة: «سآتيكم بمدبرة منزل. . أستطيع تحمّل هذا. . وبهذه

الطريقة، لن أقلق عليكم».

رد بحساسية تعكس مدى لطفه ورقته: «أنت تقلقين كثيراً لورا».

لطالما أحست لورا أن كيث سيشكل زوجاً رائعاً لامرأة ما في يوم من الأيام. وأكمل: «سيحاول دارين أن يشعرك بالذنب لأنك تتمتعين بعطلة تستحقينها جيداً.. لكن أحبطي مساعيه، أيمكنك هذا؟».

ـ سأحاول..

عاد دارين إلى البيت بعد نصف ساعة.. حجب الباب بجسده الضخم.. وبطوله البالغ ستة أقدام، ارتفع كالبرج فوق بقية الأسرة. كان خداه عريضين، وشعره أسود كثيفاً، أما كتفاه فتماثلان كتفي لاعب كرة القدم الأميركية.. بدا مختلفاً عن كيث، وعن جايمس كذلك.

علمت لورا أنه لن يستهلّ الحديث، فقالت له بوضوح: «مرحباً دارين.. كيف كان العمل اليوم؟».

منذ شهر آذار، أكب على أعمال مختلفة في حقل كرمة محلي.

ـ لقد أوقفوني عن العمل حتى موعد جني المحصول.

لا شك أنه يختبر ردة فعلها، وهو يأمل أن تنزعج سريعاً، لكنها قالت بشكل عادي: «هذا سيء جداً.. لكن فلننظر إلى الناحية الإيجابية.. أنا أريد السفر لثلاثة أو أربعة أسابيع..».

قاطعها متدهشاً: «هل ستقومين برحلة بحرية حول العالم؟ فأنت الآن قادرة على تحمل المصاريف».

ردت ببرود: «أليس هذا رائعاً؟ لكنني أكره أن أخيب ظنك. أنا مسافرة إلى كاب بريتون وحسب. إلى كوخ شقيقة جاين».

ـ يقوم كيث الآن بمهنة أوبرالية، وسوآن ترمي بنفسها على ستيف غارسون. هذا ليس الوقت المناسب للاختفاء.. فأنت، على أي حال وصيتنا القانونية.

لن تستسلم لعقدة الذنب أبداً..

ـ أنت لم تساعدني على هذا قط.. أليس كذلك؟

رفت رموشه إزاء صراحتها المفاجئة.

ـ هذا الموضوع يضجرني.

ضحكت لورا غير مصدقة: «لا تتهرب من الإجابة.. لقد رفضتني منذ دخلت من هذا الباب».

وهذا ما حصل فعلاً.. فحين كان في السادسة عشرة، اعتبر أنه يستطيع أن يتحمل مسؤولية أخويه من دون مساعدتها.. وقام بما في وسعه منذ ذلك الوقت، حتى يحول حياتها إلى جحيم يومي، عساها ترحل عنهم. لكنها بقيت. وحاولت أن تكون متفهمة..

ـ دارين، سأغيب معظم شهر تموز.. وسوف تراقب كيث وسوآن.. أليس كذلك؟ سأستأجر لكم مدبرة منزل، لكن هذا لن يغني عن وجود فرد من العائلة.

ـ لا يغني.. أليس كذلك؟ ولهذا يدهشني سفرك.. هل ستأخذين السيارة؟

ـ أجل.. طبعاً.

ـ إذن.. ماذا يفترض بي أن أستخدم؟ يمكنك شراء سيارة أخرى من دون مشقة، بعد أن ربحت كل ذلك المال.. ولكنك لن تفعلي هذا.. صحيح؟ لن تفعلي شيئاً لمساعدتي؟

ـ دارين.. هذا غير صحيح! لكن، يجب أن أفكر كيف أتعامل مع المال..

استدار ورمى بغطاء علبة الكعك المحلى عن رف المغسلة.. إنه دائماً أخرق، منذ كان صغيراً.. ثم قال بصوت أجش: «إذن اذهبي.. لكن لا تتوقعي مني أن أرعى كيث وسوآن».

وجه إليها كالعادة عدداً من الردود الحادة.. فسألته: «وهل ستتمكن من الحصول على عمل آخر لفترة الصيف؟».

هز كتفيه: «لا أعرف.. وربما».

وحمل طبقاً مليئاً بالكعك المحلى وكوب عصير، ثم غادر المطبخ.

بعد خروجه، كشرت لورا وجهها كالأطفال.. ربما تكون سخيفة لأنها قررت ألا تشتري سيارة أخرى.. فلن يكلفها هذا إلا حبة رمل في صحراء واسعة.. لكنها مرّت بسنوات عديدة من التقطير والتوفير، ولن تخسر حرصها

النفسي بين ليلة وضحاها.. لعلها، في أعماقها، لم تكن تصدق أن المال حقيقي.

تضمت الكعك وهي تفكر.. أدركت أن معارضة دارين زادت من قوة قرارها بدل أن تضعفه.. لقد وضعت جابن إصبعها على المشكلة الحقيقية. تحتاج لورا فعلاً إلى إجازة.. لا لتفكر بالمال فحسب.. لكن لتحلل كذلك عواطفها نحو بارت وطلبه المستعجل ليدها.

في الصباح التالي، قامت لورا باللمسة الأخيرة، فاتجهت إلى شارع ماين نحو المستشفى حيث تعمل بوقت جزئي كمساعدة في المختبر.

كانت استقالتها في جيبها، ولأنها لا تعمل بدوام كامل، فقد أنذرتهم قبل أسبوع واحد فقط.. حولت عينيها عن الكنيسة، حيث بدا الدهان مشققاً ومتساقطاً بالفعل، لتلتقي بعيني والدة بارت الزرقاوين العبقريتين. أقبلت نحوها على الرصيف وهي تهتف: «لورا.. ! رائع أن أراك عزيزتي!».

ونظرت حولها نظرة تآمرية: «هل حددتما موعد الزفاف عزيزتي؟ كم سعدت حين قال لي بارت إنه طلب الزواج بك. زواج رائع.. أعرف أنكما ستسعدان.. وأعرف أنك إذا فكرت جيداً، سترفضين أن يغادر بارت البلدة إلى هاليفاكس.. أليس كذلك عزيزتي؟».

وضحكت كالفتيات الصغيرات: «وحين تسمعين دبيب الأقدام الصغيرة في المنزل، لن ترغبي في الالتحاق بكلية الطب.. أعرف هذا. قلت لبارت إنك ستغيرين رأيك حتماً».

عدت لورا إلى العشرة، وهي تحاول أن تبتلع غصة الغضب التي تصاعدت إلى حلقها، ثم قالت: «تنتظرين قرارات كثيرة في الأسابيع القادمة سيدة مانتغ. بما فيها قرار قبول الزواج ببارت أم لا».

طرفت العينان الزرقاوان غير مصدقتين. كيف لأية امرأة أن ترفض ابنها الوسيم الفاتن؟ ستكون بلهاء إذا لم تقبل به.

ـ قد تكونين على حق.

لكن الذنب ليس ذنب السيدة مانتغ، فهي طيبة القلب إلى حد البلاهة.. بل هو ذنب بارت. كيف يتجرأ ويخبر أمه أنها وافقت على الزواج به؟.. وربتت لورا

على ذراع المرأة.

ـ أنا واثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام.. الآن، يجب أن أسرع، وإلا تأخرت عن عملي.

أسرعت الخطى فوق الرصيف، الذي تظلله أشجار الدردار الطويلة، وأخذت تفكر بإدراك منطقي كامل. سوف أسافر في الأسبوع المقبل.. سوف أبتعد عن غرانتهام.. أبتعد عن الأولاد.. عن بارت والسيدة مانتغ. ودهان الكنيسة اللعين. سوف أستلقي في الشمس وأتمتع بالعزلة.

كانت متأكدة من نجاح الخطة فالعزلة هي ما تريده، أو هكذا ظنت. والعزلة هي التي ستلقاها في ذلك الكوخ على شاطىء كاب بريتون.

***

٢ ـ رجل وامرأة . . . وشاطىء!

مع أن المطعم صغير، إلا أنه بدا ساطع الإضاءة. عُلقت فوق بابه لوحةٌ بالأحمر والأبيض، قرأت عليها لورا: مطعم آني للوجبات المنزلية. تعرف أن من الصعب إرضاء سائقي الشاحنات من حيث الطعام. وإن دلت سيارات النقل التي في الخارج على شيء، فإنما تدل على أن وجبات آني هذه لذيذة. . وأوقفت سيارتها إلى جانب شاحنة ما، ثم التقطت حقيبتها وأقفلت السيارة.

كان المكان هادئاً جداً. . تحولت السماء من اللون الذهبي إلى الشاحب، وارتفع لون أزرق مائل إلى البياض فوق خط الأشجار المثلم الأسود. لمحت لورا عبر الأشجار البحر الفولاذي الهادىء، فمددت ساقيها. . لقد مرت بصعوبات كثيرة هذا اليوم. لم تنس بعد كيف اضطرت إلى التوقف في مرآب لاستبدال المروحة. . لذا، تأخرت أكثر مما توقعت، لم يكن الكوخ يبعد أكثر من خمسة أميال. لكنها، لسوء الحظ، ستصله بعد حلول الظلام. .

فتحت باب المطعم ودخلت، لكنها سمعته يُغلق بقوة خلفها. وما إن استدارت حتى بهرها الضوء المشع في المكان. على الفور التفتت نحوها كتيبة من الرؤوس، أغلبها من الرجال. لكن أكثرهم عادوا الى طعامهم غير مكترثين. . فمظهر لورا، كما يحلو لكيث أن يصفها، لا يتسبب بزحام سير خانق. . أما القلة الباقية فنظرت مجدداً إلى الجسم النحيل المستقيم في البنطلون القطني والقميص العسكري الطراز، ودقق الرجال في الشعر الذي أشعثته الريح، وفي المشية الرشيقة.

نظرت لورا الى البعيد، فاختارت طاولة قرب النافذة، وهي تتساءل كيف تجلس في المطعم وحيدة. . فالطعام يقتضي المشاركة. . وعادة، عندما تعرف أنها ستأكل وحدها تجلب معها كتاباً. . لكن كتبها الآن في السيارة، وهي لا تشعر برغبة في إحضارها. ابتسمت حين تذكرت كيف دستها معها على غفلة من جابن ثم التقطت لائحة الطعام.

أقبلت إليها النادلة ذات الوجه الطويل. . وسألتها بصوت يشبه الصفير:

ـ مساء الخير. . ماذا تطلبين؟

ـ عصير طماطم، أما بالنسبة للعشاء فلحم ديك رومي مشوي، وفطيرة حلوى بالتفاح، مع قهوة. . أرجوك!

انشغلت النادلة بالكتابة، ولسانها بين أسنانها، والقلم في يدها كأنه سلاح قاتل. . ثم توارت بعيداً بين بابين خشبيين متحركين، حيث يتصاعد ضجيج الأواني. وصوت امرأة تتكلم دونما توقف. . أتكون آني؟

نظرت لورا حولها. كان سائقو الشاحنات يجلسون في أبعد طرف من الغرفة. . وراحوا يدفعون بالطعام إلى أفواههم وكأنهم يعانون جوعاً قاتلاً. وبالقرب منهم جلس ستة مراهقين، ثلاثة صبيان وثلاث فتيات، يتشاركون في ثلاثة أكواب من الحليب المخفوق، وقد أكثروا من الضحك والتلميحات. . عند آخر الطاولة الطويلة قبعت امرأتان بدينتان تتناولان فنجان قهوة وقطعة حلوى كبيرة بالكريما. . أخيراً، انصرفت بنظرها الى آخر من تبقى في المطعم. . كان يجلس بدوره على الكرسي المرتفع أمام الطاولة الطويلة، إلى جانب الصندوق، ومنصة بيع الشوكولا والعلكة. . بدا مرتاحاً، وغارقاً في أفكاره الخاصة. . لكن، لماذا قدرت أنه لا ينتمي إلى هذا المطعم الصغير القذر؟ إنه يشبه دارين حين يكون في «الريتز» مثلاً. . وعجزت عن الإجابة. . كان يرتدي سترة «دونيم» باهتة، وبنطلون جينز رثاً، ولم يكن قد حلق لحيته منذ أيام. . لكن شعره الكثيف الأشقر كان يلمع نظيفاً، ومعالم وجهه تنضح بالقوة والشخصية.

وكأنما أحس بثقل نظراتها عليه، فأدار رأسه. . بدت عيناه رماديتين، وكأنهما لمعان البحر بعد المغيب. تأملها بغير اكتراث، وكأنها جزء لا يتجزأ من

الأثاث، ثم عاد ينظر الى طاولة البيع أمامه.

أشاحت لورا بسرعة بنظرها عنه، وقد صبغ الاحمرار خديها.. كانت تحدق إليه وكأنها مراهقة مصدومة، لكنه تمكن بنظرة واحدة أن يشعرها بمدى سذاجتها وفظاظتها وبأنها أصغر بكثير من سن الخامسة والعشرين.

لحسن الحظ، وصلت النادلة التي كانت تحمل على الصينية عصير طماطم مثلج، تفوح منه نكهة الصلصة، أرغفة خبز مستديرة، ساخنة، ولذيذة حقاً.. أكلت لورا اثنين منها وسرعان ما غمرتها الراحة.. مرة أخرى، عرفت أن سائقي الشاحنات على حق.

أما بقية الوجبة فجيد، كانت قطع الديك الرومي طرية مليئة بالمرق، والخضار طازجة، وقد علا حلوى التفاح طبقة محمصة لا تماثل ما أعدته هي يوماً.

في هذا الوقت كان السائقون قد غادروا، يتبعهم الشبان المراهقون.. ثم دخل رجل تهالك على مقعد قريب من طاولة البيع المستطيلة.. قدمت له القهوة، والكعك المسطح، وأخذ يرتشف القهوة بصوت مرتفع، ويغني. لكن النادلة تجاهلته وكأنها سمعته لمرات عديدة من قبل.. وأما المرأتان فكانتا تشربان فنجان القهوة الثالث، فيما الرجل الغريب يتناول الحلوى، مثلها. وهنا أسرعت في النهام فطيرة التفاح حتى تغادر المكان قبل أن يستعد للرحيل. ثم التقطت لورا حقيبتها، ودفعت الكرسي إلى الوراء، وتقدمت إلى الصندوق بثبات.

كان الرجل صاحب الجينز الباهت، يضيف السكر إلى القهوة. ذوّب قطعتين من السكر، واحدة تلو الأخرى.. راقبته لورا بذهول وهو يفتح قطعة السكر الثالثة الملفوفة بالورق.. مع أنها تبالغ، إلا أنها اكتشفت فيه لمسةً بشرية لا تتماشى مع مظهر وجهه الجانبي الصارم.. بسرعة، أبعدت نظرها عنه، قبل أن يضبطها تحدق إليه مرة أخرى.. لكنها بقيت في داخلها، ترى كتفيه العريضتين، تحت السترة الوضيعة، وشعره الأشقر المجعد في مؤخرة عنقه.. عندما غضبت من أفكارها، راحت تنظر حولها وهي تتوق الى العثور على النادلة.

فجأةً ناداها الرجل العجوز بصوت يكاد يُفهم: «انضمي إلي عزيزتي.. حلوى آني..».

صمت لينجشأ ثم تابع: «.. طعام من الجنة..! طعام الملائكة! طيبة المذاق! من أرض الحليب والعسل».

ولحشأ مرة أخرى.

ردت لورا وهي تبتسم له بأدب: «لا.. شكراً لك.. يجب أن أكمل طريقي».

أطلّت امرأة عارمة الصدر، ينكلل شعرها بخصلات برتقالية كثيفة.

- آرتشي.. توقف عن هذا. لقد نبهتك قبل الآن، ألا تزعج الزبائن.. وها قد عدت إلى الإزعاج، رغم كل الوعود.. ماذا أفعل بك؟

لم تسكت حتى تستعيد أنفاسها، بل استدارت إلى لورا ومررت لها الفاتورة. وفتحت حقيبتها تبحث عن محفظتها.

كالعادة، كانت حقيبتها مليئة بكل صنف ولون، من أدوات الزينة إلى أقلام التصوير. وأخذت لورا تبحث عن محفظة نقودها، وهي تقطب بين الفينة والأخرى... دفتر الملاحظات، الشيكات، قلم رصاص، قلم حبر. لكن المحفظة غير موجودة.

زاد عمق عبوسها.. فتحت السحّاب حتى آخره وهزت الحقيبة جيداً.. لكنها لم تر محفظتها.

قلبت بذعر محتويات الحقيبة، فوقع قلم على الأرض، وتدحرج تحت الطاولة الكبيرة، وأمسكت بكومة مناديل ورقية قبل أن تقع أرضاً.

ثم قالت أخيراً: «أظنني أضعت محفظة نقودي».

قابل الصمت تصريحها. وحين رفعت رأسها رأت آني تحدق بها ويداها على خصرها وعيناها قلقتان. تورد وجه لورا وهي تقرأ أفكار آني بوضوح وكأن المرأة تلفظت بها واحدة واحدة.. تعتقد المرأة أنها تقوم بخدعة.. لا شك أنها تظن أن لورا تحاول التهرب من دفع ثمن الوجبة.

مرت لورا خلف الرجل الأشقر، وجلست بعيدة عنه بمقعدين.. أفرغت حقيبتها على الطاولة الكبيرة. مع أنها وجدت ما لم يخطر ببالها قط، إلا أنها لم تعثر على المحفظة.. هنا، أدركت أنها لن تجدها أبداً.. لكن، عليها أن تحاول..

لملمت كل أغراضها الشخصية، ودفعتها إلى الحقيبة، ثم قالت ببؤس: «صدقاً.. لقد أضعت المحفظة.. لقد استخدمتها في محطة الوقود حين دفعت ثمن حزام المروحة. لا بد أنني تركتها هناك.. يمكنني أن أحرّر لك شيكاً».

تقدمت آني إلى جانبها، ولوحت ذراعاً مفتولة العضلات إلى لوحة على الجدار: «الدين ممنوع والشيكات ممنوعة، شكراً لكم.. الإدارة».

أغمضت لورا عينيها.. قد تخبرها أنها ربحت اليانصيب منذ أسبوعين، مليون دولار.. وأن الشيك لن يرد.. لكنها لم تقل شيئاً.. فهي واثقة تماماً أن آني لن تصدقها.. بل لا شك أنها تريد المال نقداً.. لا أن تسمع ترهات عن مليون دولار. فتحت عينيها.. وحاولت أن تقول بكل صدق: «أنا لا أحاول خداعك.. أرجوك صدقيني.. أنا فعلاً أضعت محفظتي.. ولا أعرف اسم محطة الوقود.. لكن..».

وتذكرت اللوحة الخشبية على مضخات الوقود «ساعات العمل: من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً ونقفل أيام الآحاد».. ونظرت إلى ساعتها لتجد أنها التاسعة والنصف.. فتابعت يائسة: «محطة الوقود مقفلة الآن.. لكنني سأقيم..».

من خلفهما هتف آرتشي: «أرفقيها بحساب آني.. ستصلني الإعانة الحكومية بعد غد.. لقد مرّ زمن طويل منذ اشتريت وجبة طعام لفتاة جميلة».

ـ لا تتدخل يا آرتشي.. دفعة الإعانة تماثل وعودك خيباً.. فهي تصل اليوم وتطير غداً.

رددت لورا كلامها: «أنا أقيم في كوخ على الطريق.. سأعطيك اسم مالكته، ورقم الهاتف.. سأبقى هناك لشهرٍ. ما إن أعود غداً إلى محطة الوقود، حتى أسدد الحساب كاملاً».

لأول مرة، رفع الرجل الذي يرتدي الجينز الباهت رأسه.. وتفحص لورا من رأسها حتى أخمص قدميها وعيناه الرماديتان مشبعتان بالازدراء.

ـ يا لها من صدفة أن تكون محطة الوقود مقفلة الآن!.

شردت لورا: كم أنا محظوظة لأنني قابلت الآن أكثر الرجال جاذبية. لكنها في

ظل هذه الظروف، تابعت بأدب جمّ: «لماذا لا تهتم بشؤونك الخاصة؟».

ـ آني صديقتي.. ولا أحب أن تتعرض للخداع.

ـ أنا لا أحاول خداعها!

ـ توقفي عن هذا.. إنها أقدم خدعة في التاريخ.. أهكذا تشترين الصندال الجلدي والثياب الفاخرة؟ أتغشين الناس الذين يعملون حتى يكسبوا رزقهم بعرق جبينهم؟

تحركت آني بتململ: «تشوك.. لست بحاجة..».

لكن لورا نالت كفايتها.. فصرخت بسخرية وهي غير مهتمة بحجم آني: «لا أدري من أنت، تشوك، أو من عيّنك حاكماً ورئيس لجنة انهام.. لكن..».

ـ إسمي تشارلز.

ـ لكنها نادتك تشوك.. وتوقف عن مقاطعتي.

ـ أكره أن أنادى بتشوك.

تدخلت آني بهدوء مهيب: «أنت لا تبدو كتشارلز.. تشوك يناسبك أكثر، وبهذا سأناديك».

قالت لورا غاضبة: «أنت مخطئة.. إنه تشارلز حتى العظام.. ثم لماذا نناقش اسمه على أي حال؟ من المفترض أن نتكلم عن محفظتي!».

فجأة، ضحكت آني ضحكة هادرة:

ـ أي إنسان يهزمك تشوك، يستحق فرصة.

نظرت لورا إليها بدهشة، فيما سألتها هذه: «أين ستقيمين؟!».

ـ في كوخ سالي وجيل كونتغهام. على بعد خمسة أميال من هنا.

مرة أخرى فتشت في حقيبتها: «رقم الهاتف مدون في دفتر ملاحظاتي».

أطلق تشارلز هسيساً طويلاً من بين أسنانه..

ـ هذا كل ما أحتاج إليه.

رمقته لورا بنظرة غريبة.

ـ لدي كل الحق أن أقيم هناك.. شقيقة سالي من أعز صديقاتي.. مع أن هذا ليس من شأنك!

ابتسم لها ابتسامة شريرة:

ـ أعتقد أنك محطئة . . اسمحي لي أن أقدم نفسي . . فأنت جارتي، القريبة جداً أنا تشارلز، ولست تشوك، ريتشاردز، في خدمتك.

اتسعت العينان البنيتان وكشفت الرموش السوداء عن خيبة أمل واضحة.

شهقت: «أوه . . لا . . ! هل نقيم في الكوخ المجاور؟ ذلك الكوخ الوحيد على شبه الجزيرة؟».

ومضت عيناه بمكر: «أجل . . ونحن نتشارك الطريق والشاطىء».

صرخت مجدداً: «جئت إلى هنا لأبتعد عن الجميع، لأنعم بالعزلة . . بالهدوء والسلام . . ولم أكد أصل حتى ظهرت لي كجارٍ».

نظر تشارلز إلى آني التي كانت تصغي باهتمام.

ـ إنها ليست مغرية جداً . . أليس كذلك آني حبيبتي؟

قالت آني: «تشوك . . أحياناً، قد تنفر الجدران منك . . ولا أستطيع القول إنني ألومها».

قالت لورا باسترضاء: «يا إلهي . . ها قد هجرك الجميع تشوك أم لعل آرتشي ما زال يعتقد أنك رائع!؟».

من دون أي انزعاج . . مد تشارلز يده إلى جيبه الخلفي، وأخرج محفظة جلدية:

ـ أنا واثق أنه يعتقد هذا . . آني أحضري لي فاتورتي، حبي . وسأدفع فاتورتها أيضاً . . بما أنها جارتي، أنا واثق أنني سأقبض القيمة منها . . في يوم ما . . على فكرة، ألن تعرّفي عن نفسك؟ ليس من الأدب أن أستمر بدعوتك «هي».

ردت لورا بابتسامة عذبة: «أوافقك الرأي، هذا ليس لائقاً أبداً».

رأت الضحك يتراقص في عينيه . . لكنها حاولت جاهدة أن تتخيل بارت أمامها، وأضافت: «اسمي لورا . . لورا والكر».

مد إليها يده: «أنا سعيد بمقابلتك . . سيكون الشاطىء مكاناً أكثر إثارة واهتماماً».

واشتعلت لورا بدورها غضباً . . كان رجلاً طويل القامة مثل دارين . .

وفكرت: هذا غير عادل . . ثم امتدت يدها لتبتلعها يده . . لكنها أعجبت بدفء كفه . . وأحبت كذلك قوة قبضته . . ثم اكتشفت أن في وجهه جاذبية تفوق ما رأته في صورته الجانبية . . . لكن آرتشي تحدث مرة أخرى، وضاع السحر . فاستفاقت من أوهامها، وقالت بصوت جاف: «بما أن آني عرفت أنني لن أختفي، فلا داعي أن تدفع فاتورتي . . سأعود إلى محطة الوقود في الصباح، ثم أدفع لها، لا بأس في ذلك يا آني . . أليس كذلك؟».

أحست آني بعناد تشارلز وقالت: «بكل تأكيد عزيزتي . . لا بأس في هذا أبداً».

ألقى تشارلز بورقتين نقديتين على الطاولة.

ـ هذا يغطي الفاتورتين . . أضيفي حساب آرتشي على حسابي كذلك.

رفعت آني عينيها إلى السماء، ثم سجلت المبلغ على الآلة القديمة الطراز وأعطت تشارلز الباقي.

بعدئذٍ، أرسلت نظرة سريعة إلى وجه لورا الغاضب، وأردفت: «هاك الباقي . . أنت محسن كريم في هذا اليوم تشارلز . . ».

ثم تعمدت أن ترفع صوتها: «آن وقت الإقفال آرتشي».

قال تشارلز: «سأقلك إلى منزلك آرتشي».

رفع حاجباً ساخراً نحو لورا: «لا شكر على واجب . . آنسة والكر».

وردت ساخطة: «أنت مخطىء، إذا ظننت أنني سأشكرك على معروف لا أريد منك أن تفعله».

ـ إدفع وأنت خارج . . هذا شعاري دائماً.

ـ وهو عادةً شعاري أنا كذلك . . بما أنك تصرّ على مثل هذه البادرة العظيمة، لطفاً، أترك علاوة للنادلة على طاولتي . ليلة سعيدة سيد ريتشاردز، آرتشي، آني، سأراكم في الغد، وأعد أن تكون محفظتي معي.

رمت بحقيبتها فوق كتفها . . وخداها يتوهجان غضباً، ثم خرجت من المطعم . . حين صر الباب وهي تقفله، تطايرت ضبابة من الفراشات من حول الضوء الموجود فوق الباب . . .

لاحظت سيارة «جيب» سوداء ورمادية متوقفة إلى الجانب الآخر من المبنى..
لا شك أنها سيارة السيد تشارلز ريتشاردز.. مع أنها كانت ملطخة بالوحل، إلا أنها لم تكن سيارة قديمة أو رخيصة.. وعلى الرغم منها، وجدت نفسها تفكر فيه وتتساءل عنه.. يبدو رجلاً مثقفاً، وحوله جو من الثقة بالنفس يلازمه كخياله. ويزيده الأنف المستقيم والفك الصارم صلابة وقسوة. لكن ملابسه بدت مهترئة تقريباً.. وهو يصادق رجلاً بسيطاً.. فجأة، انقطع حبل أفكارها، إذ صدح صوت آرتشي بالغناء مرة أخرى.. ما إن التقطت بضع كلمات من أغنيته، حتى احمر وجهها، وسارعت إلى باب سيارتها.

من بعيد، ناداها تشارلز ريتشاردز: «انتظريني هنا لورا، فلن أتأخر سوى بضع دقائق. سأوصل آرتشي.. ثم تلحقين بي إلى الكوخين.. فقد لا تجدينهما بسهولة في الظلام».

لا شك أنه قدّم عرضه بنية طيبة، ولو أنها تتمتع بلطف وطيبة مثل سوآن، لشكرته وقبلت. لكنها ما زالت تغلي غضباً بسبب اتهامه وقررت ألا تسامحه..

قالت بوضوح: «لا.. شكراً لك. لقد أرشدتني جاين بشكل جيد.. وأنا واثقة أنني سأجد طريقي».

حياها بسخرية، وأمسك بآرتشي يدفعه إلى مقعده.. بعد لحظة، انطلق في الاتجاه الذي وقدت منه لورا.. حين اختفت أنوار السيارة استقلت لورا سيارتها الهوندا، وانطلقت في الاتجاه المعاكس.

كان مطعم آني أحد المعالم البارزة التي زودتها بها جاين.. وقد حددت لها بدقة أن الطريق الخاصة إلى الكوخ تقع إلى الجانب الأيسر من الطريق العام على بعد خمسة أميال ونصف فقط.. حاولت أن تحسب في رأسها كم تساوي خمسة أميال ونصف بالكيلومترات.. وتقدمت ببطء نحو الطريق الملتوية.. بين حين وآخر، كان يلمع نور في الظلام، فتشاهد معالم منزل صغير، أو منزل متحرك، يقع بعيداً عن الطريق في وسط الغابة.. لكنها لم ترَ طوال الطريق سوى أشجار تعلوها سماء مرصعة بالنجوم.. أشجار تكشف عن نفسها نهاراً، صنوبراً وخيزراناً وسروا. لكنها تتحول ليلاً إلى كومة سوداء مجهولة، صلبة ومخيفة.. لا يمكن للورا أن

تغامر بدخولها ولو من أجل مليون دولار.

لم يبق للورا إلا دليل وحيد، وهو شجرة سنديان ضخمة، يمتد خلفها طريق داخلي مرصوف بالحصى، يتجه نحو البحر.. لورا فتاة مدينية.. ومع أنها لم تعش في غرانتهام إلا منذ أربع سنوات فقط، فقد تعلمت شكل أشجار الدردار، وكيف تميز بستان التفاح من بستان الخوخ، ولكنها لا تعرف السنديان جيداً، لا سيما في الظلام الدامس. كانت قد سارت أكثر من ثمانية كيلومترات، حين أبصرت شجرة ضخمة إلى الجهة اليسرى من الطريق امتدت فروعها لتظلل طريقاً ترابية ضيقة، تختفي في الظلام باتجاه البحر.. خففت من سرعة السيارة، وأضاءت مصباح الإشارة، ثم نظرت حولها.. لا يمكن لها أن ترى الكوخ من هنا، هكذا قالت جاين.. وهذه واحدة من مميزات الكوخين.. إذن، لا بد أنه المفرق.

تقدمت ببطء ثم توغلت في طريق وعرة وبداها تمسكان بالمقود.. كان المنعطف أضيق مما بدا لها.. أخذت الأغصان تخدش جوانب سيارتها.. ووقعت في سلسلة من الحفر، وكانت تجفل كلما اصطدمت الإطارات بالصخور. يجب أن تتفرع الطريق قريباً.. فرع يوصل إلى منزل شقيقة جاين وفرع آخر إلى منزل تشارلز ريتشاردز. لكن الطريق لم تتفرّع..

حاولت أن تتجاهل دقات قلبها المتسارعة ولكن من دون جدوى.. ما بالك لورا؟ هل أنت خائفة من الظلام؟

بسرعة، وقبل أن تستطيع الإجابة عن سؤالها، تقدمت إلى الأمام.. وارتفعت غصون السرخس التي تكاد توازي الأولاد طولاً، وأخذت تطرق نوافذ السيارة كأنها أصابع ناعمة.. لم يعد للورا أدنى شك في أنها أخطأت الطريق، لا سيما حين ظهرت أمامها فجأة، شجرة صنوبر عملاقة، مشققة، سقطت على الأرض بفعل قوة عاصفة قديمة.

لا منازل هنا.. أحست لورا بالغثيان.. على الأقل، تعرّفي إلى شكل شجرة السنديان!. وببطء شديد، بدأت ترجع السيارة إلى الطريق التي قدمت منها.. كانت على وشك الوصول إلى الطريق العام حين رأت سيارة أخرى تنتظرها من بعيد.. سيارة «جيب» رمادية وسوداء.. بالقرب منها، أبصرت رجلاً في ثياب

باهتة ينتظر وصولها.

تمتمت بكلمة نابية من بين أسنانها.. وأدارت السيارة نحو الطريق المعبدة، ثم توقفت بجانبه أما هو فاستدار إلى نافذتها، ليسمع اعترافها الهش: «أجل.. لقد أخطأت الطريق.. وشكراً لك.. سألحق بك».

نظر من فوق كتفه إلى الخلف وقال منشدقاً: «من المفترض أن تستديري قرب شجرة السنديان.. وهذه شجرة قبقب».

- وكيف لي أن أعرف الفرق؟.

- من الورقة الحمراء على علم كندا.

- أكره الرموز الوطنية.. أظنها تفرق ولا توحد.

- وأنا أظنك شابة تحفل بالكثير من القرارات والأحكام المسبقة.

- أحدها أنني متعبة وأود أن أصل إلى الكوخ بأسرع ما يمكن.

- سنتلقى لاحقاً على الشاطىء مع كوب من عصير البرتقال، لنناقش مسألة «الوطنية» أنا وأنت.

ابتسمت ببرود: «أنا لا أشرب عصير البرتقال.. كما أنّي أفضل أن يُطلب مني الموعد، لا أن يحدد لي.

- أوه.. أجل فأنت تتوقين إلى العزلة.. ولكنك ستسرين بصحبتي لورا والكر بعد بضعة أيام من العزلة في هذا الكوخ.

- وهل المكان ممل إلى هذا الحد؟

بدأ يضحك. بدا وسيماً جداً وهو يضحك، أسنانه جميلة، بيضاء ومستوية، يوليها عناية تماثل العناية بيديه وشعره.. وسألها: «هل ردودك حاضرة في جعبتك دائماً؟».

- حين تقضي أربع سنوات في تربية ثلاثة مراهقين، تتعلم بسرعة الفن الرفيع لحماية الذات.

وكانت هذه الملاحظة الشخصية الأولى التي تلفظت بها لوراله، لكنها سرعان ما ندمت عليها ما إن رأت حدة الاهتمام في عينيه.

إزاء ذلك لم يملك إلا أن يقول: «يمكننا مناقشة هذا بالإضافة إلى

مسألة «الوطنية». من يدري؟ قد يثير اهتمامي فعلاً! والآن.. لمَ لا تتبعيني؟ سأذهب مباشرة إلى كوخك، لأساعدك على حمل أمتعتك إلى الداخل. ولا تجادليني لورا والكر، فأنا قادر على التصرف كسيد مهذب بالرغم من مظهري هذا».

ردت بصدق: «أنا واثقة من ذلك».

تلاشت الابتسامة عن وجهه وسأل بحدة: «ماذا تعنين؟»

قطبت جبينها قليلاً: «لا أدري.. لسبب ما.. أعتقد أنك ستتكيف في «الريتز» كما تكيفت عندآي.. ولا تسألني لماذا».

قطب حاجبيه بدوره، فظهرا كخطين عموديين يشقان جبهته.. للحظة، ولقت لورا أنه سيرميها بسؤال آخر.. لكنه شد على شفتيه قائلاً:

- لا يبعد المفرق أكثر من بضع مئات من الياردات لكنني سأسير ببطء.

تعجبت من ردة فعله، ثم أخذت تراقبه وهو يعود إلى «الجيب» ثم يقفز إليه.. كان بنطلونه مشدوداً حول ساقيه الطويلتين.. أرعبتها مشاعرها، وتحركت فيها رغبة غامضة.. منذ أسبوع واحد، كانت تبكي بارت.. فكيف تغمرها هذه الأحاسيس نحو غريب أشقر، اتهمها بالكذب. صباح الغد، ستلقي نظرة طويلة على شجرة السنديان. فقد ينفعها علم النبات هنا.

بدت شجرة السنديان ضخمة الجذع، أغصانها سوداء، ومثلّمة.. كانت الطريق إلى الكوخين مختلفة كلياً عن الطريق التي سلكتها.. والأهم أنها أكثر عرضاً ونعومة ورصفاً. وكما قالت جاين تماماً، تفرعت إلى قسمين، سلك «الجيب» الفرع الأيسر منهما.. وعلى ضوء ظل أنوار السيارة الأمامية المتأرجح خيل إليها أنها لمحت الكوخ.. إذ تأرجحت أمامها ألواح خشبية بيضاء ونوافذ خضراء قاتمة.. بدا المكان لطيفاً ومقبولاً، فاسترخت أصابع لورا فوق المقود وتنفست الصعداء.. لقد بدأت عطلتها بكارثة.. لكن كل شيء سيكون على ما يرام من الآن فصاعداً.

توقفت إلى جانب الجيب، وترجلت من سيارتها.. انسل نسيم مسائيّ رقيق بين أغصان الشجر، وأرسل الشاطىء همساً أكثر دفئاً، وتكسرت الأمواج على الصخور.. تغلغلت فيها رائحة الهواء والبحر معاً، ومرة أخرى عادت النجوم

لترصع السماء بجمالها.

أخيراً قالت بصوت ناعم خفيف: «المكان هادىء جداً..».

سألها وهو يراقبها عن كثب: «هل أضعت محفظتك حقاً؟».

وفي لحظة واحدة، تحطم سحر الليل وتلاشى النسيم الصيفي.. لكنها لم تشعر بالغضب هذه المرة، بقدر ما أحست بالألم. وردت عن سؤاله بسؤال مضاد: «وهل أنت دائماً كثير الشك هكذا؟».

ـ لقد تعلمت أن أشك كثيراً.

ـ لن أستطيع وحدي.. أن أعيد إيمانك بالجنس البشري.

ـ جربي.

قالت ببطء: «أنت رجل غريب جداً.. ولا أفهمك».

ـ أنت تغيرين الموضوع لورا.. هيا.. جربيني.

رفعت عينيها إلى عينيه، وكلمته بلهجة لطالما استخدمتها مع دارين:

ـ لقد قلت لآن الحقيقة المطلقة.. أضعت محفظتي في مكان ما بين محطة الوقود والمطعم، وكلي أمل أن تكون في محطة الوقود وأن يكون صاحبها صادقاً شهماً وأميناً.

ثم هزت كتفيها وأضافت:

ـ هذا كل شيء.. وأنا قادرة تماماً على دفع ثمن طعامي، ولا أمضي وقتي في خداع الناس.

رغم كل جهودها، بدا شيء من الألم في صوتها.

ـ إذن.. أنا مدين لك باعتذار.

ـ ألا يجدر بك أن تنتظر إلى الغد؟ قد أهرب ليلاً وأغيب عن ناظريك إلى الأبد.

ـ لا أظن.. وأنا آسف لما بدر مني في المطعم لورا.. لقد استسلمت إلى الاستنتاجات الخاطئة.

كان اعتذاراً طويلاً، مباشراً وفي محله تماماً.. فلم تملك إلا أن تحترمه.

قالت: «لقد سامحتك».

سحب نفساً عميقاً: «شكراً لك.. هل أنت متعبة؟».

مرة أخرى وصل الهمس إلى مسمعها موجاً ناعماً.

ـ كنت متعبة.. لكنني لم أعد كذلك.. وأعتقد أنه سيكون مكاناً رائعاً.

ـ لِمَ لا أريك الطريق إلى الشاطىء؟

ـ الآن؟

ـ طبعاً.. ولِمَ لا؟

ضحكت ضحكة مبتهجة. لِمَ لا.. أو تسأل؟

ـ هاك.. أمسكي بدي.

ترددت لحظة.. مصافحته في مطعم أمام نظرات آني الثاقبة شيء والإمساك بيده في ظلام أمسية صيف شيء آخر.

كان يجب أن تعرف أنه سيلاحظ ترددها.. وسارعت تمدّ يدها لتشعر مرة أخرى بقبضة أصابعه الناعمة.. اقتادها من وراء الجيب، ثم سارا نزولاً في ممرين الأشجار، حيث زُينت الأرض بعيدان الصنوبر المتساقطة.. وفيما هما يتقدمان، تبدد همس الأمواج شيئاً فشيئاً، وصدح هدير البحر المتعالي.. فأحست لورا بنعومة الرمل تحت قدميها.. وتركت يد تشارلز، لتنحني وتخلع حذاءها الصيفي، ثم تحركت أصابع قدميها بسعادة الأطفال، وهي ترفع أطراف بنطلونها.. ومن دون كلمة، بدأت تسير نحو البحر.. للحظات، بقيت صامتة.. شعرت برهبة السماء القاتمة، وأغدق عليها البحر سواده اللامع، المصقول كالآبنوس.. فجأة، قبّلت موجةٌ قدميها، فصاحت بذعر: «إنها فارسة!».

هتف تشارلز من خلفها: «ستكون دافئة ما إن يحل شهر أيلول».

ـ لن يفيدني هذا.. فلن أبقى هنا إلاّ شهراً واحداً.

ضحك لها: «ستعتادين عليها بعد فترة.. بعد أن تتخدري».

ـ أتعني أنك تسبح في هذه المياه؟

ـ كل صباح.. فهذا ما يوقظني تماماً.

ـ ألم تسمع بمرض اسمه هبوط حرارة الجسم؟

حرك ذراعيه: «أنا قويّ لورا».

فجأة ضحكت ضحكة قطعت أنفاسها.. ثم:

ـ أتعرف.. لو قال لي أحد هذا الصباح قبل أن أسافر، إنني سأقف في الليل على الشاطىء، مع رجل ضخم ووسيم جداً، ليعرض لي عضلاته، لقلت له إنه مجنون.

سرعان ما رأت في عينيه الاضطراب... وسرعان ما أنزل ذراعيه إلى جنبيه.

ـ حسناً جداً.. هذا إطراء لطيف.. أعني ما قلته عن الوسامة.

انحبست أنفاسها، فتراجعت خطوة إلى الوراء من دون وعي منها. منذ صغرها وهي تميل للتكلم قبل أن تفكر.. لكن السنوات الأربع التي قضتها في غرانتهام علمتها التكتم، أو هكذا اعتقدت.. فكيف يطيح تشارلز ريتشاردز بكل هذه الدروس التي تعلمتها طوال سنوات؟ وكيف يدفعها سحره إلى التلفظ بأول ما مرّ في رأسها؟

أكملت بتوتر: «لا بد أن الوقت متأخر.. من الأفضل أن أخرج أمتعتي من السيارة».

ـ لا بأس عليك لورا.. لن أضغط عليك.. بل سأساعدك.

ـ أستطيع أن أتدبر أمري.

تذكرت أن حقيبتيها تحملان بطاقة بعنوانها. وهي لا تريد لتشارلز ريتشاردز أن يعرف أنها من غرانتهام؛ حيث تعيش آخر رابحة ليانصيب المليون دولار.. ولو أضافت اسم غرانتهام إلى اسمها لحركت فيه الشكوك، لكنها تريد لتشارلز أن يتقبلها كأية امرأة شابة عادية، وليس كفتاة ثرية.. وهي لا تدري لماذا أصبح هذا يهمها فجأة، وبشكل مذهل.

تقدم منها قليلاً: «أنت مستقلة كلياً».

أطل عليها من فوق، فإذا ظل أسود يجتاح كل ظلال الليل الأخرى. وابتلعت لورا ريقها، وتساءلت هل عناقه كبديه قوة ودفئاً.. بطريقة ما، لا تظن أنها ستتلقى جواباً. وفي الوقت عينه، تساءلت عن سرّ تصرفها الغريب. فهي لم تنظر إلى رجل عدا بارت منذ سنوات.. فما خطبها؟

قالت بلهجة أرادتها عفوية قدر ما استطاعت: «وهل الاستقلال أمر مستحسن أم مكروه؟».

ـ مستحسن بكل سرور.. لكن بحدود. إذ نحتاج جميعاً إلى الناس بين الفينة والأخرى... لماذا أنت على هذه الدرجة من التوتر؟

أجفلت: «لست متوترة!».

تقدم خطوة أخرى.

ـ أعتقد أنك متوترة.

بدا لها أن لقدميها جذوراً في الرمال.

ـ ولماذا أتوتر؟ لقد أكدت لي أنك سيد مهذب. ومن الأفضل أن تكون صادقاً في كلامك، وإلا سأخبر آلي عن تصرفاتك.

تلاشى الابتسام عن وجهه: «يا له من تهديد مطلق! أنا لا أشعر أنني سيد مهذب لورا.. والحقيقة أنني أشعر برغبة في الضحك. لكني لست مستعداً للمخاطرة.. فأنا واثق أنني قد أتلقى صفعة على وجهي».

أو أتجاوب معك.

قالت وهي تأمل أن تبدو مقنعة: «قرار حكيم».

ـ أوه.. الحكمة.. لا شأن للحكمة بين رجل وامرأة يجتمعان على الشاطىء في ليلة صيف.. فلنعد.

هذه المرة لم يمسك تشارلز بيدها، بل تسلق الربوة، ثم سار في الحقل من دون أن يتطلع خلفه ليرى ماذا كانت لورا تتبعه.. وكانت تتبعه. لكن عقلها اضطرب كثيراً.. أما جسدها فصرخ فجأة، وهو يتألم بتعب... لقد واجهت الكثير في يوم واحد.. والمفارقة، أنها لم تخطط قط أن تقع في سحر رجل غريب وسيم، يسكن في آخر أصقاع كاب بريتون...

حين وصلا إلى الكوخ، جاء تشارلز بمشعل يدوي من سيارته، وانتظر بصبر حتى وجدت مفاتيحها. وما إن فتحت الباب، وأضاءت الأنوار، حتى قال:

ـ ليلة سعيدة لورا.

ـ ليلة سعيدة.

لكن كلماتها علقت في الهواء. فلما التفتت حولها وجدته يصعد الجبب..
وللمرة الثانية ذلك المساء، راقبته يبتعد.. وسرعان ما خنقت الأشجار هدير المحرك وأخفت أنوار السيارة.. لم يكن الكوخ الآخر قريباً كما تصورت.

أخرجت لورا متاعها من السيارة بعزم وتصميم.. وقامت بعدة رحلات لتنقل الأمتعة جميعها إلى الداخل. ثم أقفلت الباب، وتفحصت المنزل كله، وأخرجت ثياب نومها من إحدى الحقائب. وأخيراً رمت بنفسها على السرير.. لم تكن آخر فكرة ساورتها قبل النوم عن بارت.. ولا عن أولاد أخيها بل كانت عن تشارلز ريتشاردز، هذا الرجل الذي أبدى السعادة والرضا حين قالت له، إنه وسيم.

* * *

٣ ـ عناق يهزّ العالم!

لم تنم لورا جيداً. كان الفراش قاسياً جداً. عصفت الريح في الليل، فارتفعت في الكوخ جلبة عظيمة. صحيح أن للمنزل القديم في غرانتهام أصواته الخاصة، لكن لورا ألفتها.. أما هذه، فأصوات جديدة.. استلقت وحدها وسط هذا الليل الموحش، تحاول أن تستسلم للرقاد. لكنها كانت خائفة من أيّ حركة. فحفيف الغصن على النافذة يستحيل أشبه بقبضة يد إنسانية، وصرير ألواح الأرض يتحول إلى وقع أقدام متسللة.. في الفجر، خلدت إلى النوم أخيراً. لكنها أفاقت بعد ساعتين، فخارج النافذة، وقفت جوقة كبيرة من العصافير تمارس تمارينها الصباحية المرحة، وغنّت الأمواج على الشاطىء.. لسوء الحظ، لا تزال محفظة نقودها ضائعة.

نهضت لورا من فراشها، لا بسبب الطيور أو الأمواج بل بحثاً عن محفظتها..
في الكوخ غرفتا نوم وغرفة جلوس.

كانت معدات المطبخ بسيطة لكن كافية. ولكن لسوء الحظ، كانت خزائن المطبخ كلها فارغة، وكذلك البراد الصغير.. تجاهلت صراخ معدتها، ونسيت أن لا مال لديها لتشتري المعلبات، أو الفطور، وذهبت تفتش عن الهاتف.

كان دليل الهاتف ملقى على طاولة قرب المقعد المرتفع الظهر.. بدت الطاولة صغيرة جداً، أما الهاتف فكان معلقاً على الجدار قرب المطبخ.. تذكرت اسم المحطة والقرية، فلم تجد صعوبة في العثور على رقم محطة الخدمات.. ثم التقطت السماعة لتطلب مركز الهاتف، وهي تعي أن المخابرة بعيدة المسافة.

لكن الهاتف كان مقطوعاً.. دون حرارة.. ولا نكتكة، ولا أي شيء آخر..
وفكرت لورا ساخطة: «إنه مقطوع.. ولماذا تدفع شقيقة جاين مصاريف هاتف لن تستخدمه؟».

إذن.. ماذا تفعل الآن؟ أتقود سيارتها مئة ميل إلى محطة الوقود، لتجد أن محفظتها مفقودة؟ بالطبع لا.. يجب أن تتصل أولاً. ذهبت إلى غرفة النوم، وقلبت حقيبتها رأساً على عقب، لتخرج بنسين ونيكل، وعدة بطاقات مسرحية مستخدمة.. لكن سبعة سنتات لا تكفي لاستخدام هاتف آلي.. يجب أن تعثر على عشرة سنتات.

أمامها خياران.. إما أن تذهب إلى الكوخ الآخر وتطلب استخدام هاتف تشارلز.. وإما أن تذهب إلى المطعم وتطلب من آني إقراضها قطعة نقدية. لكن ذلك بدا غير مستحب بتاتاً.. إذن يجب أن تذهب إلى تشارلز.

بعد ربع ساعة، ارتدت تنورة قطنية مزهرة وقميصاً أبيض، ثم صعدت السلم وتوجهت إلى الكوخ الآخر.. كانت نوافذه الخشبية حمراء اللون، لا خضراء كنوافذها. ولا يتدلى منه الورد، عدا ذلك فهو توأم لكوخها.

تناهت إليها موسيقى مألوفة من الباب.. إنها تعرفها تماماً، فلطالما سمعتها من كيث.. لكن «واغنر» في الثامنة صباحاً.. آه لا.. وبقبضة قوية ضربت على إطار الباب. وانتظرت الرد. إنها متأكدة من شيء واحد فقط.. لا يمكن لتشارلز أن يكون نائماً.

لكنها لم تنتظر طويلاً.. فقد ظهر رجل نصف عارٍ بين الباب وغرفة الجلوس. طرفت عينا لورا.. ثم أمسكت بإطار الباب لتدعم نفسها وتقول: «صباح الخير تشارلز».

فتح لها الباب: «هاي، لورا، ادخلي».

كان يرتدي ثوب سباحة أزرق.. فبدا فاتناً ساحراً. أخذت نفساً عميقاً، فتغلغلت فيها رائحة القهوة الطازجة واللحم المقلي اللذيذ.. قالت دون أن تنظر إلى تشارلز: «هل لي أن أستخدم هاتفك؟».

سأل بجد: «ما الأمر؟».

ـ يجب أن أتصل بمحطة الخدمات لأسأل عن محفظتي. لكن هاتفي مقطوع وليس معي سوى سبع سنتات.

ـ لم أقصد هذا.. انظري إليّ لورا.

شهقت: «وهل يجب أن أفعل؟».

أمسكها من ذراعها: «لورا..».

نظرت بغضب: «لم أتوقع رؤيتك على هذا النحو في الصباح المبكر».

حانت منها التفاتة إلى عينيه، فقرأت فيهما انعكاس صدمتها. وسرعان ما أشاحت بوجهها.

ـ أنت تتصرفين وكأنك لم تري رجلاً في ثوب سباحة من قبل.

ـ بالطبع رأيت رجالاً! لكنني لم أتوقع ذلك، هذا كل شيء.

وضع يده الأخرى حول مرفقها.

ـ أنت ترضين غروري.

ـ أنا واثقة أن غرورك يحظى بالكثير من الاهتمام.

ـ أنت لا تعرفين من أنا لورا. قد أكون متشرداً على الشاطىء.. من الرعاة.. متسكعاً.. غير مرغوب فيه.

نظرت بثبات إلى الشعر الأشقر وقد تهدل على البشرة الملساء الممرّة:

ـ برأيي، أنت خالٍ من كل هذه الأوصاف.

ـ قد أكون عاطلاً عن العمل.. أعيش على الإعالة الحكومية.

بدت حائرةً بدورها.

ـ لا أفهم إلى ماذا تلمّح.

ـ لقد كنت لطيفة وأنحت إلى وسامتي.. ألا تريدين أن تعرفي شيئاً عن وضعي المالي أولاً؟

أفلتت منه، وهي لا تزال حائرة: «أولاً؟ ماذا تعني أولاً؟ أنا لا أخطط للزواج بك أو.. ما شابه.. نعم أنا أجدك جذاباً.. وهذه ليست بجريمة.. أليس كذلك؟ ولا علاقة لذلك بوضعك المالي بالتأكيد».

ـ ماذا لو التقيت برجلين يتساويان في الجاذبية. أحدهما يملك الكثير من المال

فيما الآخر بائسٌ مفلس.. ألن تهتمي بالرجل الغني؟

ـ هذا موقف مصطنع تماماً، وتعرف هذا!

فكرت بوضعها المالي ثم أضافت: «قد أختار الآخر.. فالمال يغير الناس، أحياناً نحو الأسوأ.. والآن، أرجوك، دعني أستخدم هاتفك، أم أن عليّ أن أستخدم الهاتف الآلي عند آني؟».

ـ آني لا تفتح المطعم حتى الظهر.. يا الله! اللحم يحترق!

قفز مبتعداً عنها نحو الفرن، وأمسك بالمقلاة ليبعدها عن النار، ولكنه ما لبث أن صرخ ألماً عندما تطاير رذاذ السمن الساخن على بشرته. وبسرعة، عمد إلى شوكة ليرفع قطعة اللحم السوداء.

ـ اللعنة! من يرغب في أكل هذه؟

سأل لعابها: «أنا، لو عرضت عليّ».

قطب جبينه: «ألم تتناولي الفطور؟».

ـ لم آتِ بأي طعام، كما أنني لا أملك المال لأشتري شيئاً.

نظر إليها بذعر: «أنا آسف لورا.. لم أفكر بهذا قط ليلة أمس وإلا لدعوتك إلى الفطور هنا في الصباح. سأقلي المزيد من اللحم.. صبي القهوة.. تجدين الأكواب في خزانة الزاوية».

أرادت أن تبقى.. لكن، فجأة، انتابها إحساس مرعب... ستضطر إلى أن تحشر نفسها بينه وبين رف المغسلة حتى تصل إلى القهوة والأكواب. وهو وضع لا تحب أن تكون فيه معه.

ـ هل تمانع لو اتصلت بالكاراج أولاً؟ لو عرفت أن محفظتي هناك.. فسيطمئن بالي.

ـ الهاتف في غرفة نومي.. هل لديك الرقم؟

ـ أجل.. شكراً لك.

وبدأت تتراجع: «لن أطيل الغياب».

هنا، وضع اللحم من يده وكأنه تنبه إلى أمر: «مهلك لحظة.. هل تشعرين براحة أكبر لو ارتديت ثيابي؟».

أحست لورا أن الاحمرار يتوالد في مكان ما من عنقها، وأنه سرعان ما سيشق الطريق إلى خديها: «أنا.. أجل.. هذا صحيح».

اقترب منها: «أنت لست ابنة مدينة متحذلقة.. أليس كذلك؟ لورا.. هل أنت متزوجة أو مخطوبة أو أي شيء من هذا القبيل؟».

هذا سؤال آخر لم تتوقعه: «ليس تماماً.. طلبني شخص ما للزواج قبل أن أجيء إلى هنا.. لهذا أتيت. في الحقيقة، احتجت إلى وقت لأفكر بالأمر ملياً».

ـ إذا كنت مضطرة للتفكير.. فلا تقدمي على الزواج.

قالت ساخرة: «بالتأكيد.. فالأمر بهذه السهولة».

تقدم تشارلز خطوة.. فقاومت لورا اندفاعاً يحثها على التراجع ولكنها لم تكن تدرك أن المعركة معكوسة في عينيها..

قال: «هل أخبرك أنك جميلة؟».

نعم، منذ ربحت اليانصيب فقط.. فكرت بهذا ثم تذكرت كلام كيت بوضوح: «ابن شقيقي يقول إنني لن أتسبب بزحام سير خانق».

ـ حقاً؟ هذا مثير للاهتمام.. لأنني حين رأيتك في المطعم من بعيد، كنت موافقاً معه.. لكن، وأنا أقف قريباً منك هكذا، وعندما أرى كيف ترتفع عيناك، وألمح لمعان الذهب في البؤبؤين.. وأسمع رنة ضحكتك الرائعة.. من دون أن أنسى، بالطبع، توردك الجميل.. فكيف لا أخاطر تلك المخاطرة التي لم أخضها ليلة أمس؟

عرفت ما يعنيه تماماً.. وبمزيج من الذعر والإثارة استطاعت أن تقول: «لن أتخذ القرار عنك».

وضع يديه على كتفيها، فلم يفصل بين وجهيهما إلاّ أنفاس قريبة:

ـ وهل تقبلين قراري، مهما يكن؟

ـ أفضل شيئاً آخر.

ـ حقاً؟ أعتقد أنني أعرف ما تفضلين.

همست: «جربني..».

التفت ذراعاه حولها بدفء ورقة وعانقها برقة ولكن العناق ما لبث أن ازداد

عمقاً ولكن ظل بين جسديهما مقدار إنش أو إنشين. . اقترب منها أكثر حتى كاد الجسدان يتلامسان. . ثم تركها بعد لحظة أو دقيقة. . لا تدري. . أحست لورا بارتجاف داخلي. وشعرت أنها سافرت إلى البعيد البعيد، مع أنها لم تغادر هذا المطبخ. .

فجأة، تلاشى الدهاء من عيني تشارلز، وانقلبنا فوراً إلى الجد. .

تمتم بارتباك: «حسناً. . حسناً. . ».

لم تسعف الكلمات لورا. . لم تستطع أن تتفوه بكلمة تافهة مثل «حسناً»، فحاولت أن تبتسم، لكن الارتباك كان مرسوماً في شفتيها، فأخفضت عينيها إلى صدره.

قال بعد صمتٍ طويل: «لم أتوقع هذا».

استنجدت بملاحظته وقالت: «وماذا كنت تتوقع؟».

تحرك بعدم ارتياح: «آه! لست أدري. . عناق. . . عفوي. . . لكنني، لم أتوقع أن تميد بي الأرض. . كانت الأوركسترا ترعد من بعيد».

اقترحت قائلة: «لعلها الموسيقى».

ـ ما حدث لي، لا علاقة له بواغنر. .

رفع ذقنها بإصبعه.

ـ هل شعرت بهذا أيضاً. . لورا؟

ـ ألم تعرف؟

ـ هل شعرت به لورا؟

همست: «أجل. . أجل، شعرت به».

ـ وهل ساورك هذا الإحساس حين عانقك الرجل الذي يريد الزواج بك؟

اتسعت عيناها برعب: «لا. . لا. . لم يحدث لي شيء كهذا».

قال بصراحة: «وهذا سبب آخر يدفعك إلى رفض الزواج. . سأذهب لألبس ثيابي. . ثم تصلين بالمحطة».

راقبه يبتعد عنها. . كان عريض المنكبين، طويل الساقين. . بغاية الوسامة. . أغمضت عينيها، وقد تغلغلت الموسيقى في دمها، وأسرتها في غضب

حار. . وتساءلت هل سيبقى كل شيء على حاله بعد الآن. .

ـ فيم تفكرين؟

فتحت عينيها. كان الآن يرتدي جينزه الباهت، وقميصاً قطنياً.

تمتمت: «لا شيء معين، إنها سلسلة من الأفكار المشتتة».

ـ أعرف هذا الإحساس. . لورا، أود أن أسألك. . ماذا عنيت حين قلت إن المال يغيّر الناس؟

لن تخبره أبداً أنها ربحت مليون دولار. . لو كانت تتوق إلى عناق عذب ساحر فعليها أن تكتم الأمر. وإلا، كيف تعرف إن كان يعانقها من أجل عينيها، أم من أجل مالها؟

ـ أوه. . لا أعرف، إنه مجرد إحساس. . المال الفائض لا يخلق السعادة دائماً.

ـ لكن المشكلة هي أن يحدد المرء هذا الفائض.

لم ترغب في مناقشة أمر المال: «أنت على حق، طبعاً. . لنعد إلى العمل، أنا بحاجة إلى محفظتي. . فأنا أحب الأكل. . هل تعذرني؟».

عندما لمحت طاولة قرب السرير، سرعان ما أدركت أنها مجرد صندوق برتقالي. كان الهاتف فوقه تماماً. . أخرجت ورقة صغيرة مطوية، عليها رقم محطة الوقود، ثم طلبت رقم مركز الهاتف. . بعد سلسلة من التكتكات، سمعت صوت رجل يقول: «محطة وقود «أسو» بتلي».

عندما شرحت له سبب المكالمة، قال لها: «مهلك لحظة. . سأستدعي جو، إنه المدير».

حين كلمها جو، شرحت لورا له المسألة مجدداً، فسألها: «أيمكن أن تصفي محفظتك سيدتي؟».

وصفت له محفظتها، بقدر ما استطاعت من دقة.

رد جو بهدوء: «حسن جداً. . أجل. . هي عندنا. لقد تركتها على منصة البيع. . هل تأتين لتأخذيها؟».

ـ أحمد الله أنها عندكم. . أجل سآتي هذا الصباح.

ـ حسن جداً إذن. . أراك لاحقاً.

ـ شكراً لك جو.

أعادت السماعة إلى مكانها، ثم تركت الغرفة.

كان تشارلز يقلي المزيد من اللحم في المطبخ. ابتسمت له: «إنها هناك! تركتها على منصة البيع.. هذا غباء مني.. أحمد الله أنهم أناس شرفاء».

ـ وأنت واحدة منهم.

وضع الشوكة من يده، وتقدم نحوها خطوة، ثم توقف ساخطاً، وقال: «أود أن أعانقك مجدداً.. أريد أن أعانقك وأعانقك.. ليس من عادتي أن أنجرف هكذا مع نساء أعرفهن منذ أقل من أربع وعشرين ساعة.. لا سيما في الثامنة والنصف صباحاً».

دفعتها جرأته إلى صراحة مماثلة، فسألته: «وماذا يميزني عن غيري؟».

ـ أود لو أعرف.. ربما لأن طباعك حادّة ولا تترددين في الدفاع عن نفسك! لأن جمالك هادىء لا يفرض فرضاً.. أنت كزهرة برّية، ولست مثل أوركيديا في مستنبت زهور حار.. لأنك...

فجأة، أخذت تضحك: «تشارلز.. ستحرق اللحم مرة أخرى!».

أخذ يتمتم شاتماً، ثم قلب قطع اللحم إلى وجهها الآخر، وأخفض حرارة النار.

ـ أنا في العادة طباخ ماهر، صدقي أو لا تصدقي.. أتريدين.. هناك خبز على رف المغسلة.. أترغبين في التوست؟

تمكنت من عبور الممر الضيق بينه وبين الرف، من دون أن تلمسه... لا تنتقديه لورا، إذا كان يتصرف بشكل غير طبيعي.. فأنت أيضاً تتصرفين بشكل غريب.. وجدت الزبدة والمربى في البراد.

ـ صبّي القهوة، فنحن جاهزان لنأكل.

حملت كوبي القهوة إلى غرفة الجلوس، حيث أزاح تشارلز أكوام الصحف والكتب عن الطاولة، ووضع عليها رقعتي قماش، ومناديل ورقية. ثم جلسا ليأكلا.

كان واغنر قد صمت.. يا لها من نعمة إلهية! مرر تشارلز الملح والبهار إلى

لورا قائلاً: «أخبريني عن هذا الرجل الذي يريد الزواج بك».

تسمرت لورا في مكانها، وتسمرت معها الشوكة في منتصف الطريق إلى فمها: «لا!».

ـ ولم لا؟

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ بلى.. إنه من شأني.. أريد أن أعرف خصمي.

ـ تشارلز.. جئت إلى هنا لأبتعد عن كل المشاكل. لأكون وحدي، وأفكر بالأمور.. وليس لـ...

ـ.. لأعانقك في الثامنة والنصف صباحاً؟ لكنك لم تقاوميني فعلاً لورا.

مدت يدها إلى المربى، ودهنت بها التوست.. ثم أطاعته.. من الأفضل أن تتحدث عن بارت على أن تتحدث عن ذلك العناق.

ـ اسمه بارت مانتغ، إنه في الثامنة والعشرين من عمره، وهو محامي البلدة الوحيد.

ـ ما شكله؟

وجدت صعوبة غريبة في تذكّر تفاصيل بارت الدقيقة لا سيّما أن تشارلز ريتشاردز يجلس قبالتها.. لكنها بذلت جهدها: «طوله خمس أقدام وأحد عشر إنشاً.. شعره أسود وله شارب.. عينان زرقاوان، وسيم المظهر، مجد في عمله.. يحب الرياضة».

ـ ومنذ متى تعرفينه؟

ـ منذ ثلاث سنوات.

ـ وهل لزمه ثلاث سنوات ليطلب يدك؟

وكيف ترد على هذا؟ قطعت لورا البيض بترتيب.. وقالت: «أجل».

ـ إذن هو لا يستحقك.. هل تحبينه؟

فجأة، فرغ صبرها. فرفعت رأسها وفي عينيها ألم وارتباك، وكأنها تبكي ثلاث سنوات حب، وطلب زواج في غير محله: «لا تضايقني تشارلز».

ضاقت عيناه: «لم تخبريني بعد الكثير».

ـ طبعاً! لقد قابلتك للتو، بحق الله..!

ـ إذا فضلت، نتكلم عن الطقس.. يقولون إن الحرارة سترتفع إلى خمسة وسبعين فهرنهايت اليوم. وسيكون أشد أيام الصيف حرارة.

ما زالت غاضبة، فسألته: «ماذا عنك؟ هل أنت متزوج، خاطب، أم لعلك طلقت زوجتك؟».

ـ لا.. خطبت مرة، منذ أربع سنوات.. ثم فسخت الخطوبة.. ولم أبنِ علاقات جادة منذ ذلك الوقت.

ـ من أين أنت؟

ـ من تورنتو.. أتعرفينها؟

ـ لقد نشأت هناك.. وأحب تورنتو! ماذا تعمل هناك؟

ـ أعمل لصالح شركة كبيرة متعددة الجنسيات، في المناجم والصناعة.. أنا في إجازة منذ مدة، ويجب أن أعود في شهر أيلول.

كانت لورا حادة الملاحظة، وقد تعمقت فيها هذه الميزة بعد أربع سنوات من معايشة ثلاثة مراهقين وتحمّل تقلباتهم.. لمست في صوت تشارلز مراوغة صغيرة.. وقالت: «أنت بدورك، لا تخبرني الكثير».

ـ لا مجال لخداعك لورا.. ربما علينا أن نتكلم عن الطقس.

ـ ربما هذا أفضل.. بعد ذلك، أساعدك في غسل الصحون، ثم أنطلق في طريقي.

بعد نصف ساعة، كانت تقود سيارتها، مبتعدة عن كوخه. لقد ناقشا عدداً من المواضيع العادية، وتطرقا إلى أحاديث غير شخصية، ثم نظفا المطبخ قليلاً، قبل أن تودعه من دون مصافحة.

قبل أن تصل إلى محطة الوقود، استغلت وقتها في التفكير.. فكرت ملياً.. ووبخت نفسها.. أنت محرومة من الحب الحقيقي.. أنت مدفونة في الريف منذ أربع سنوات، مع بارت، الرجل الوحيد الذي اهتم بك، ومع ثلاثة مراهقين، يراقبون كل حركاتك.. والآن، قابلت رجلاً جذاباً جداً.. كوني صادقة لورا.. أنت ترغبين في صلة تربطك به.. لكنك لن تستطيعي.. فهو ليس من طرازك.

وأنت إلى ذلك تحبين بارت.. أليس كذلك؟

وهل تحبه؟

وجدت نفسها تستعيد آخر مرة رأت فيها بارت، في الأمسية التي سبقت سفرها إلى كاب بريتون.. فارقه السرور حين علم بسفرها ثم جاء ليصحبها إلى العشاء، وليصطحبها في نزهة في السيارة، لكنها عرفت على الفور أنه ما زال متكدراً. إذ عانقها بجفاء وقال: «لقد أزعجت أمي حين ألمحت أننا قد لا نتزوج.. لقد قلت لي إنها مسألة وقت، ليس إلا».

ـ قلت لك إنني أحتاج إلى وقت لأفكر.. وهذا ليس الشيء عينه.

ـ أمي متعلقة بك.. وهي لا ترغب إلا أن أتزوجك وأستقر.

ردت عليه لورا برقة: «في غرانتهام؟».

ـ هي تفضل أن نعيش في غرانتهام، طبعاً.

ـ بارت.. أنا لا أستطيع أن أتنقل من هاليفاكس إلى هنا كل يوم، إنها بعيدة جداً. وأنت تعلم أنني أخطط للانتساب مجدداً إلى كلية الطب.. حين تتخرج سوآن من مدرستها في السنة القادمة، سأصبح حرة كي أحقق أمنيتي.

ـ أنا معجب بطموحك لورا.. لا تسيئي فهمي.. لكن، ألا تعتقدين أن الوقت حان لمواجهة الوقائع؟ أنت الآن في الخامسة والعشرين، لا في الحادية والعشرين. وستبلغين الثلاثين قبل أن تتخرجي.. وهذه سن متأخرة قليلاً للانطلاق في مهنة جديدة.. أليس كذلك؟

ـ بكل تأكيد، كنت أفضل أن أنطلق بهذه المهنة قبل الآن. لكن جايمس مات، وكان على أحدهم أن يعتني بدارين وكيث وسوآن. لذا أجلت كل شيء خمس سنوات. لكن الأوان لن يفوتني عند الثلاثين.

ـ إذن، أنت تصرين على الالتحاق بكلية الطب؟

ـ بالتأكيد.. هذا ما أريد أن أفعله. لطالما عرفت هذا.

ـ كنت أظن أن الزواج يحتل الأولوية في نظرك.

أخذ يفتل شاربه بيد واحدة، في إشارة إلى مدى غضبه.

ـ لا تجبرني على الاختيار بين أمرين.. ألا يمكنني أن أحصل على كليهما؟

ـ لو أردنا أن نرزق بأولاد لورا . . فهل ننتظر حتى تجتازي الثلاثين؟

ـ يقدم الكثير من الناس على هذا . . فهم يؤخرون تأسيس العائلة إلى ما بعد الثلاثين.

ـ أنا لا أعتقد أن هذا عمل حكيم أبداً . . على أي حال لورا، لا حاجة بك للعمل كي تكسبي معيشتك لا سيما وأنت تملكين كل ذلك المال.

أحست بأعصابها تشتد: «بارت . . أريد أن أكون طبيبة! لا لأجل المال . بل لأنها أمنيتي . . ظننتك تفهم هذا».

ـ بدأت أوافق أمي الرأي . . إن أول واجباتك هي لبيتك وعائلتك.

ـ أنت توافقها الرأي . . أليس كذلك؟ أنا لن أتزوج أمك بارت . . بل سأتزوجك أنت.

شد شاربه بعنف . . وسحب نفساً عميقاً . . ثم قال بلهجة مختلفة وكأنه يسترضيها: «إذا كانت مهنة الطب تهمك لهذه الدرجة، أنا واثق أننا سنجد حلاً وسطاً . . يمكننا أن نعود إلى غرانتهام بعد تخرجك . . أو يمكن لأمي أن تنتقل إلى هاليفاكس . . أنا لا أريد سوى سعادتك لورا».

مرّا بستان تفاح، فقالت فجأة: «فلنتوقف ونخرج من السيارة».

بعد أن أوقف بارت السيارة إلى جانب الطريق، سارا بين صفين متوازيين من الأشجار، تحمل كلٌ منها ثماراً بحجم التفاح البري الصغير . . كانت طيور السنونو تطير فوق رأسيهما . . كان يجب أن تشعر لورا بالسعادة والابتهاج لأنها تسير يداً بيد، إلى جانب الرجل الذي تحبه، وسط هذا الجمال الخلاّب . . لكنها لم تشعر بشيء، بل أحست بالتوتر . لو كانت وحدها لهربت بأسرع ما يمكنها، إلى أبعد ما تستطيع، حتى يتلاشى التوتر من جسمها، وتعود الراحة إلى نفسها.

أصدر العشب همساً ناعماً تحت قدميها، وأصغت إلى تغريد السنونو . . ثم قالت: «لن أتخلى عن دراسة الطب بارت . . إذا شكّل هذا عائقاً في نظرك . . فلا أظن أننا ستتزوج إذن».

ـ ستتوصل إلى حل لورا.

شدها نحوه وعانقها، عانقها طويلاً وبحرارة أكثر مما تصورت . . وفي

لحظة، سمعت السنونو، وطائر الدرّج . . ثم أحست بغصن يعلق في شعرها، ويحفيف شاربه على بشرتها . . وتساءلت، لماذا تشعر بانتشار الذعر فيها؟

حين رفع رأسه أخيراً، بدا واضحاً أن ذعرها لم ينتقل إليه . . بل قال بصوت أجش: «لورا . . لم أحاول مغازلتك قبلاً . . لأن الظرف لم يكن مناسباً . . أنا أعيش مع أمي . . ولأنني المحامي الوحيد في البلدة، فعليّ أن أصون سمعتي . . أما أنت، فلديك الصبيّان وسوآن . . لكنك جذابة جداً، ولم يكن من السهل علي دائماً أن أكبح نفسي . . هذا سبب إضافي لتتزوج، وأنا واثق أنك توافقينني الرأي».

ـ أحتاج إلى التفكير . . بارت . . أعد أن أرد عليك بعد عودتي من كاب بريتون.

ـ وأنا واثق من الرد . . أعرف أنك لن تخذليني.

لكنها لم تكن واثقة . . وعادا إلى السيارة بصمت.

اقتربت الآن من محطة الوقود، فوجدت نفسها تتذكر عناق تشارلز . . لقد عانقها لأنه وجدها جميلة . . وهو لا يعرف بأمر المليون دولار . . أثر فيه العناق كما فيها . . وهي تراهن أن تطورات الأحداث بينهما أصابت فيه وتراً حساساً.

سألها مدير المحطة بضع أسئلة أخرى، حتى تأكد تماماً أن المحفظة محفظتها . . ثم أعطاها إياها . ورفض أن يتلقى مكافأة. بعدئذٍ، ملأت خزانها وقوداً وتناولت الغداء في مطعم يحتل جانباً من المبنى . لم يكن الطعام بجودة طعام آني . . لكنها التهمته، ثم عادت باتجاه الكوخ . . الكوخ وتشارلز، وارتجفت ترقباً.

بعدما انتهت من المحطة ذهبت إلى المصرف، وإلى شركة الهاتف، والسوبرماركت، بأسرع ما يمكن، ثم عادت إلى الكوخ بلهفة . . وصلت إلى موقف السيارات بجانب مخزن بيع السمانة، ووضعت مشترياتها في صندوق السيارة. عند ذلك، رأت الإنسان الوحيد الذي تعرفه في المنطقة، عدا آني . . تشارلز.

أحاط به مجموعة من الصبيان . . بدوا مراهقين، عددهم يتجاوز العشرة . . من عمر سوآن، وأصغر . . كانوا يلعبون بالكرة، بمزيج من الحيوية

والضجيج . . بدا تشارلز رابط الجأش، رئيس المجموعة ونقطة تركيزها، والقوة المسيطرة عليها، بطريقة ما.

ابتعدت المجموعة عن نظرها. . فأقفلت صندوق السيارة وهي تفكر. . شعرت أن في تشارلز ريتشاردز أسراراً ما زالت خفية. . هذا ما تأكدت منه للتو. أرادت أن تعرف سر علاقته بهؤلاء الأولاد في الشارع الرئيسي لبلدة مناجم، بعد ظهر يوم حار من أيام تموز. . من واغنر إلى هذا. . إنه رجل التناقضات.

أقبلت على الكوخ وكأنه بيتها الثاني. . رتبت الأطعمة المعلبة، ثم ارتدت ثوب السباحة، وحملت منشفة، وكتاب الكيمياء العضوية، ثم اتجهت إلى الشاطىء. . عند حافة الحقل، تفاجأت بأرجوحة من الشبك امتدت بين شجرتين. كانت تحب الأراجيح. . لكنها ستلقي أولاً نظرة على الشاطىء. . تشارلز في البلدة، وسيكون الشاطىء ملكها وحدها.

وهذا ما فعلته. . تأملت في مساحة طويلة من الرمال الرمادية الشاحبة، وقد زينت بصدف أرجواني مخطط وبخصل مجدولة من طحالب البحر البرتقالية الجافة. كانت الرمال تغتسل بالزبد الأبيض، أبيض كالثلج. راقبت لورا الموج وهو يتقدم ويتراجع وقد صبغ بلون أكثر بياضاً من الغيوم، وأقل شاعرية. . كان بارداً بشكل مرعب.

أشاحت بوجهها عن الرمل إلى الأرجوحة. . فرشت منشفتها على الشبك، ثم استلقت على ظهرها. . لم تستلق هذا الصيف قط في فناء المنزل الخلفي في غرانتهام، ولم تترك أشعة الشمس تداعب بشرتها مرة. . لو أنها الآن هناك، لكانت إما تخبز وتطهو أو تصنع المربى، أو تلملم الغسيل. . شعرت بالذنب، ففتحت كتاب الكيمياء. . وأخذت تقرأ. . لكنها سرعان ما رمت الكتاب جانباً. . إذ أخذ النعاس يغالبها. . أنا في عطلة. هزت رأسها يميناً ويساراً. . بإمكان الكيمياء أن تنتظر إلى الغد. .

كانت لورا مستغرقة في النوم حين جاء تشارلز بعد ساعة، ليمارس رياضة الركض. . فجأة، وقف مسحوراً أمام امرأة في الأرجوحة، تتلمى إحدى ذراعيها من جانب، فيما يقبع كتاب مفتوح على جسمها. . تقدم أكثر، ونظر إلى عنوان

الكتاب: الكيمياء العضوية. . ورأى صورة معقدة على غلافه.

كانت الشمس والظلال تلعب بجسد لورا لعباً وبدت نائمة بتركيز طفل. . أهدابها سوداء تصل إلى خدها، ثغرها منفرج قليلاً، وكأنها تستمتع بأحلام مبهجة. ما هي إلا نظرة واحدة سريعة حتى قدّر جمالها. . لكنه أشاح بوجهه. . وكأن النظر إلى امرأة نائمة تطفلٌ على خصوصياتها.

كان يمكن أن ينزل إلى الشاطىء ليسبح، كما كان يخطط، لكنه لم يفعل. . عادت عيناه إلى وجه لورا. . وفكر كيف يوقظ هذا الجمال النائم. . ابتسم بسخرية. . لكن هذا لم يساعده قط. هل هو الأمير الذي سيوقظ الأميرة بقبلة؟ وهل هي المرأة التي كان ينتظرها. . تلك التي ستمحو الوحدة التي كانت رفيقه الدائم منذ سنوات؟

وكأنه تلفظ بأفكاره. . إذ انفتحت عينا لورا. كانت لا تزال نصف نائمة، لكنها استطاعت أن ترى طيف رجل يظللها. بدا أشبه بظل غامض تنيره أشعة الشمس. . صاحت بذعر، ثم راحت تتململ وقد نسيت أنها في أرجوحة. اهتزت الأرجوحة، ووقع كتاب الكيمياء إلى الأرض. فما كان من تشارلز إلا أن أمسك بها قبل أن تلحق الكتاب.

شهقت ثم أنزلت قدميها إلى الأرض فإذا بها تشعر بفراش من أوراق الصنوبر الإبرية تحت قدميها.

ـ لقد أخفتني.

تركها بتردد لم يحاول إخفاءه: «لم أقصد. . لقد بدوت جميلة. . غارقة في النوم. ففكرت أن أقوم بدور الأمير الفاتن. . ولو لوقت قصير. . أم لعل وصف الجميلة والوحش سيلائمك أكثر؟».

انعقد لسان لورا. . هي لمسة بسيطة من يده، واحترقت بشرتها، وتعطل تفكيرها. .

قال برقة: «لا تخافي هكذا. . لن أؤذيك ولو ملكت العالم كله».

خجلت من رقته الظاهرة على وجهه ثم تنبهت قائلة: «هل كنت ذاهباً لتسبح؟».

ـ أجل . . لم لا تنضمين إلي؟

ـ الماء بارد جداً . . وأشعر بالكسل .

ـ إذن، تعالي وراقبيني . . أنا أسبح طويلاً .

انحنى والتقط الكتاب : «بإمكانك متابعة القراءة» .

قالت موافقة : «أنا أدرس لامتحان القبول الطبي في الخريف» .

ـ أتعنين كلية الطب؟

ـ هذا صحيح .

ومن دون أن تدري، كتمت أنفاسها وهي تنتظر ردة فعله .

قال بدفء : «هذا رائع! أنا لا أعرفك جيداً . . لكن إحساسي ينبئني أنك ستكونين طبيبة ممتازة . . لا بد أنك حزت درجة التحضير؟» .

ـ أجل . . من جامعة تورنتو .

ـ بدرجة شرف؟

هزت رأسها إيجاباً، فأضاف : «أنت ذكية وجميلة . وهل تعودين إلى الجامعة هذا الخريف؟» .

ـ لا . . بل بعد سنة .

سارا في الحقل الأخضر، حيث زهر المرغريت الأبيض يرفع رأسه إلى الشمس بكبرياء، وحيث ريح البحر تعبث بشعرها بشقاوة .

ـ لقد حضنت أولاد أخي في السنوات الأربع الأخيرة، أي منذ مات . وسوآن، الأصغر بينهم، لن تنهي دراستها حتى السنة القادمة .

ـ إذن، أوقفت كل خططك أربع سنوات . . هذا لم يكن سهلاً عليك طبعاً .

ازدادت حدة الريح وأخذت الأمواج تغمر الشاطىء بمرح الأطفال . .

وردت : «لم يكن سهلاً . . لكن، لم أملك خياراً آخر . . هذا شاطىء جميل . . أليس كذلك؟»

ـ إذا تزوجت ذلك الشاب، أتذهبين إلى كلية الطب؟

بدا كلامه أشبه بأمر واقع لا سؤال، مع ذلك ترددت لورا قليلاً . . ففهم تشارلز : «ألا يريد منك أن تذهبي؟» .

ردت بسرعة : «يريد أن ينتقل إلى هاليفاكس ليذهب إلى «دالهاوسي»» .

ـ لكنه يفضل أن تتخلي عن الأمر . . فلا تفعلي هذا لورا .

سألت بجرأة : «وماذا لو كنت مكانه؟ ماذا لو صممت المرأة التي تريد أن تتزوجها على خمس سنوات من التعب، في برنامج يتطلب ساعات طويلة من الدراسة؟ لن تملكا وقتاً معاً، وستؤخران إنجاب الأولاد . كيف ستتصرف؟ خاصة والعمل لن ينتهي بانتهاء السنوات الخمس» .

قال، وعيناه الرماديتان ثابتتان على وجهها : «سأشجعها وأدعمها . . فإن كانت تقوم بما تريده حقاً، ستكون سعيدة . وتلك السعادة ستغمرنا وتنعكس علينا . أما المشاكل الأخرى، فلها حلولها . . لكن إذا ظل أحد طرفي العلاقة منزعجاً متضايقاً . . فانسي الأمر . . سيكون كارثة» .

ـ أنت تتكلم عن خبرة .

تحركت عيناه إلى الأفق : «أجل . . لا أتكلم عن امرأة ورجل . لكن والدي رجل قوي الإرادة يحتاج أن يسيطر على الناس، وأنا من ضمنهم . . لقد لزمني وقت طويل لأدرك أنني لن أكون سعيداً إلا إذا قمت بما أريد أنا لا بما يريده هو . . لم نتوصل إلى أيّ علاقة حميمة، إلا بعد أن وجدت الدور الذي يناسبني» .

هز كتفيه بقلق . . وحنى تحركت عضلاته تحت بشرته .

ـ وعلى هذا الأساس، أنا أتكلم عن خبرة . . أطلقي طيوراً بحرية في الفضاء، يعودون إليك . لأنهم يريدون هذا، لا لأنهم مضطرون . . . والآن ما رأيك بالسباحة؟

لن يكشف لها المزيد عن والده . هذا واضح . ولم تعد لورا تشعر بالنعاس بعد قيلولة بعد الظهر، كما بدا لها البحر الأزرق مغرياً بشكل مخادع . . فقالت بابتسامة عريضة : «بالتأكيد . . ولمَ لا؟» .

رمیا بمنشفتيهما على الرمال وأمسك يدها .

ـ لا توجد إلا طريقة وحيدة لخوض غمار الماء . أركضي . . لو دخلت شيئاً فشيئاً . . فستتعذبين . . مستعدة؟

أخذت تضحك عاجزة : «لماذا تركتك تجرني إلى هذا؟» .

ـ لأنك لا تستطيعين مقاومتي.

وتلاشى الضحك عن وجهه: «هل تستطيعين مقاومتي لورا؟».

وشدها ذراعاه إليه.

كان في عناقه حرارة وبحث ومطالبة برد.. وطغى خفقان قلبها على هدير الأمواج وعلى صيحات النورس..

تراجع قليلاً، حاول أن يبتسم: «منذ أربع وعشرين ساعة لم أكن قد التقينك بعد.. من الأفضل أن نسبح.. فللمياه تأثير الحمام البارد».

قالت مرتجفة: «قد أغرق كالحجر».

ـ لن أتركك تغرقين.. ثقي بي.

ـ أثق بك.

ركضا يداً بيد فوق الرمال حتى وصلا إلى الأمواج المزبدة.

كانت المياه باردة وثلجية، فخطفت الأنفاس من جسد لورا.. لو كانت وحدها، لارتدت وعادت من حيث أتت. لكن تشارلز ظل يجرها إلى الأعمق فالأعمق.. صاحت بصوت حاد، حين صدمت موجة خصرها ورفعتها من ذراعيها.. ثم أخذت تتلاعب بها لعباً.. وفجأة، راحت تسبح، تتقلب، وترفس بقدميها بكل قوتها.

صرخ تشارلز: «ليس الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة؟».

ضربت موجة كفها وهي تحاول أن ترشه بمائها: «أعتقد أن دورتي الدموية توقفت!».

ثم غاصت في المياه الزرقاء المتلألئة.. التقطت صدفة بيضاء كبيرة من القعر.. غمرها إحساس رائع بعالم مختلف، قد تزوره لوقت قصير، لكنها لن تسكنه أبداً. أخذ تشارلز يسبح نحوها، فابتعدت عن الرمال، وبرشاقة حورية، اندفعت إلى الشمس.. أصبحت المياه الآن منعشة، تدغدغ جسمها.

ظلا على هذه الحال عشر دقائق قبل أن يعودا إلى الشاطىء. كانت المناشف ساخنة جزاء حرارة الشمس. ما إن التحفت لورا بها حتى سرت قشعريرة فريدة في أنحاء جسمها.. والتصق شعرها برأسها.. وأحست بانتعاش رائع.

بدأت تجفف نفسها.. وقالت: «لقد رأيتك اليوم.. في «سكوتش باي» مع مجموعة من الأولاد».

ابتسم لها: «وهل كانوا يحسنون التصرف؟».

أمالت رأسها إلى الجانب: «لاحظت أنهم يختزنون طاقة تكاد تنفجر. لست واثقة أنني أرغب في تحمّل مسؤولية انضباطهم».

ـ أواجه ولدين صعبي المراس في تلك الزمرة. أنا أدربهم على كرة السلة في الصيف. الواقع أن أمامنا مباراة ليلة الغد، في ملعب المدرسة مع فريق من سيدني.. لمَ لا تأتين؟

ـ أود أن آتي حقاً!

ـ عظيم.. سأصطحبك حوالى السابعة.. أما الآن، فمن الأفضل أن أتركك للعزلة التي تسعين إليها.

نظرت إليه ببراءة وقد اتسعت عيناها: «كنت أتساءل متى ستتذكر هذا».

ـ وهل يثبت هذا أنك تسعين إلى العزلة، لا إلى وجودي؟

التقطت كتاب الكيمياء الذي لم تقرأ منه صفحة.

ـ وكيف أسعى إليك فيما هذا يرافقني دائماً؟

ـ بسهولة كما أعتقد.. لم لا تنسين الدراسة لبضعة أيام لورا.. تمتعي بعطلتك قليلاً.. لا شك أنك كنت متعبة حتى غرقت في سبات عميق على الأرجوحة.

كشرت وهي تطأ الصخور بحذر شديد: «لم أنم جيداً ليلة أمس. واجهت الكثير من الأحداث الغريبة».

ـ إن أردت صحبتي، في أي وقت...

ـ سأتصل.. لكن هاتفي لن يوصل قبل يومين.. ربما آتي إلى منزلك مساء الغد قبل المباراة لأتصل بالبيت. لأتأكد أن كل شيء على ما يرام.

ـ اتصلي هذا المساء إذا كنت تفضلين.

أخذت تقاوم هذا الإغراء في داخلها: «لا.. أفضل أن أتصل غداً».

بدت وكأنها تحاول أن تقنع نفسها.. وابتسم تشارلز لنفسه، وأشار إليها أن

تسبقه في ممر الحقل . . حين وصلا إلى المنعطف، استدارت لورا لتواجهه بطريقة عفوية: «لقد تسليت كثيراً . . شكراً».

ـ يسرني أن أخدمك في أي وقت شئت . . لورا، إذا أصابك التوتر وحدك، فلا تترددي في المجيء إلى منزلي . . ؟ لا داعي للقلق . . سأحافظ على صورة الرجل المهذب.

طلب منها قبل الآن، ممازحاً، أن تثق به . . ولقد وثقت به غريزياً، وبطريقة لا يمكن أن تفهمها أو تفسرها . وهي تعرف، أنه لن يؤذيها أو يجبرها على شيء، فقالت بوقار: «شكراً لك تشارلز».

ثم وقفت على رؤوس أصابعها لتطبع قبلة على خده.

ـ سأراك في الغد.

نظر إليها بطريقة لم تشهدها من رجل قبله . . غرقت في تلك النظرة، وتشوقت لترمي بنفسها بين ذراعيه وتعانقه . . لكنها ضمت كتابها إلى صدرها، وأسرعت عبر الممر نحو كوخها . ولم تجرؤ على الالتفات إلى الخلف، لترى ما إذا كان يراقبها.

* * *

٤ ـ لغز الأحرف الثلاثة

بعد السادسة من مساء اليوم التالي، كانت لورا تسير في الممر الملتوي الذي يصل بين الكوخين، وهو ممر سبق لها أن اكتشفته إثر جولة من جولاتها. كان الفرح شعور يكاد يستولي على الطبيعة كلها في هذا المساء الدافىء الذهبي . . والفرح هو ما شعرت به حين لمحت تشارلز يلقي بأغراضه في صندوق الجيب . . والفرح هو ما زيّن ابتسامتها حين اقتربت منه بخجل:

ـ مرحباً تشارلز.

استقام في وقفته ورمى حقيبة رياضية على الأرض . . ارتدى بنطلون جينز وقميصاً قطنياً، فأضفى على هذه الثياب العادية لمسة مميزة. رد ابتسامتها بأحسن منها . . ثم أمسك بيدها ووضعها على صدره، حيث شعرت بخفقات قلبه الثقيلة. قال: «أرأيت ما تفعلين بي؟».

وبهذه الحركة الحميمة الفورية، تجنب الأحاديث الصغيرة المعتادة كلها، وأزال كل الحواجز بينهما ووصل بسرعة إلى الهدف.

تفرست في وجهه باستغراب: «لماذا تشارلز؟ لماذا أنا؟».

رد ببطء: «لا يجدر بنا أن نحلل الأسباب . . يجب أن نرضى فقط . . بالواقع . . لأننا التقينا . . لأننا سنكون جارين لمدة شهر».

وتذكرت أنها تعرف بارت منذ ثلاث سنوات:

ـ لكن الشهر ليس بوقت طويل.

ـ أحياناً، يمكن ليوم واحد، أن يحوي عمراً بأكمله لورا . .

فجأة ومن دون إنذار أو سبب، تملك لورا رعب غامر.. من هو هذا الرجل الذي تطالبها عيناه بحقوق كثيرة؟ من هو هذا الرجل الذي ينتزع منها كل الحذر.. الذي يسحرها بصوته؟ ماذا تعرف عنه؟.. لا شيء...

تراجعت خطوة، وقالت: «هل لي أن أستخدم هاتفك؟».

وقبل أن يرد، صعدت السلم بسرعة، من دون أن تغلق الباب وراءها.

كانت غرفة نومه مبعثرة، ولكنه حاول أن يرتب سريره.. طلبت المخابرة. وفيما هي تنتظر، جالت بعينيها في أرجاء الغرفة... كانت مجلة «الفايننشال بوست» ملقاة على السرير، ومفتوحة على صفحة سوق الأسهم في تورنتو، وقد خُطت عدة تقديرات في أسفلها.. إذن، إنه مضارب في سوق الأسهم. فوق كومة من مجلات «نيويوركرز» على المنضدة، لمحت كتاباً عنوانه: «البحث عن الكمال». وهو كتاب سبق للورا أن قرأت عنه ملخصاً.. إنه يتحدث عن الشركات الأميركية الناجحة.. ها هي تكتشف فيه المزيد من الاهتمام العملي. إلى جانبه، رأت حقيبة جلدية أنيقة تحتوي على أوراق مطبوعة بأحرف ذهبية ت.ر.ت.. فقطبت جبينها. ماذا تعني التاء الأخيرة؟.. وانقطع حبل أفكارها حين رن جرس الهاتف، وردت سوآن.

ـ سوآن.. أنا لورا. كيف حالك عزيزتي؟

ـ في أفضل حال.. كان موعدي مع ستيفن رائعاً ليلة أمس.. إنه رائع لورا.. أكاد أجن به.. وأجل.. كان كيث هنا حين عدنا، وقام بدور المرافق على أفضل وجه.. فلا تقلقي.

ـ أنا مسرورة لأنك تقضين وقتاً ممتعاً. كيف يجري العمل؟

تحدثتا لبضع دقائق، ثم تكلم معها كيث: «مؤسسة والكر لمرافقة الفتيات».

ردت لورا: «أرسل لي الفاتورة في نهاية الشهر! هل حجزت بطاقة لسفرك إلى تورنتو، كيث؟».

ـ سأسافر بعد أسبوعين. من الثلاثاء إلى الخميس.

ثم تردد: «لقد سألت مديرة المنزل أن تنام هنا في غيابي».

ـ لأن دارين لا يتواجد كثيراً.

ـ إنه يعمل في مصنع أجبان خارج البلدة.. لذا فهو لا يتواجد بانتظام.

ـ أنا مسرورة لأنه حصل على عمل.. هل هو في المنزل الآن؟

ـ لقد بدأ عمله اليوم.. ولم يعد بعد.. هل تستمتعين بوقتك لورا؟

ـ أمضي وقتاً رائعاً.

التقط نغمة صوتها على الفور.

ـ هل تشعرين بالوحدة؟

ـ أبداً.. أنا أستخدم هاتف جاري.

ضحك كيث: «أرجو أن يكون طويلاً، أسمر، ووسيماً».

ـ إنه أشقر، أما الباقي فمطابق.

ـ لم أحب بارت يوماً.

ساد صمت قصير.. فهو لم يعبر لها عن مشاعره تلك من قبل.. ثم أضاف: «أنت تمانعين إن قلت هذا.. أليس كذلك؟».

ـ لا.. لا أعتقد ذلك.. وأنا.. لا أظن أنني سأتزوجه.

ـ عظيم.. لقد بان خيثه حين طلب يدك بعدما ربحت الجائزة.

إذن لم تلاحظ وحدها هذا.

ـ ظننت أني الوحيدة التي أساءت الظن به.

ـ أبداً.. بل مشكلتك أنك تثقين سريعاً بالناس. ما اسم هذا الشاب الأشقر؟

قالت ببطء: «تشارلز ريتشاردز».

ووقعت عيناها مجدداً على حقيبة الحلاقة الجلدية الأنيقة، بأحرفها الذهبية الثلاثة.

قال كيث، وكأنه عمها الكبير، لا ابن أخيها: «امرحي قليلاً، لورا.. هل تريدين أن تكلمي سوآن مجدداً؟».

ـ لا.. لا بأس.. أردت فقط أن أطمئن عليكم. وداعاً كيث.

أقفلت السماعة بحزم، وعيناها تفيضان بنظرات مرحة.

حل الصمت في أرجاء الكوخ. لا شك أن تشارلز في الخارج.. تقدمت إلى المنضدة وتلمست الأحرف الذهبية بأطراف أصابعها.. وفكرت أنه ورث الحقيبة

عن عمّ أو جد.. لكنها جديدة.. أيعقل أن تشارلز لم يخبرها بحقيقة اسمه؟ وإذا صح ذلك.. فلماذا؟

بسرعة، فتحت كتاب «البحث عن الكمال» لكنها لم تجد اسماً مكتوباً في داخله.. أما المجلات فقد اشتريت من منصة بيع ولم تكن موجهة إلى اسم وعنوان محددين.. ما من دليل هنا.. فجأة، سمعت صرير الباب.. فرفعت رأسها والذئب يغمرها.

قال لها تشارلز بعفوية وهي تعود إلى غرفة الجلوس:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

للحظة، فكرت أن تسأله عن الأحرف على حقيبة الحلاقة.. لكن سيعرف حينها أنها كانت تتجسس على أغراضه.. فسكتت عن الكلام.. لا بد من وجود تفسير بسيط.. لن يكذب تشارلز عليها.. وابتسمت:

ـ عظيم.. سوآن مغرمة، وكيث مسافر إلى تورنتو بعد أسبوعين لاختبار صوته.. لكن دارين لم يكن في المنزل.

نظر تشارلز إلى ساعته: «من الأفضل أن نذهب»..

ـ هل أحتاج إلى كنزة؟

ـ لا.. فالملعب مغلق ودافىء.

ما إن استقلا السيارة، حتى بدأت تحدثه عن سوآن، وعن كيث، ودارين، وقد سرّت أنها استطاعت أن تتجنب ذكر غرائبهم بالاسم.. خافت خوفاً شديداً من أن يكشف سرها.. ماذا لو ذهب إلى هناك؟ سيعرف فوراً أنها فاحشة الثراء، وسيتغير كل شيء.

وهنا، تذكرت لورا شيئاً آخر.. أخرجت حافظة نقودها.. وعدت المبلغ الذي دفعه عند آتٍ منذ يومين، وأضافت إليه مبلغ البقشيش، ثم قالت: «هذا هو المال الذي أدين لك به».

نظر تشارلز إلى مجموعة من الأوراق النقدية والمعدنية في يدها، فبدا عليه الانزعاج.

ـ أبعدي هذا المال لورا.

ـ لا.. أنا أدين لك به تشارلز.

ـ أرجوك.. لقد كنت فظاً جداً ذلك المساء.. فلا تذكريني بالأمر.

نظرت إليه: «لكنك اعتذرت لفظاظتك، وقبلت الاعتذار.. ولسوف أبقى على هذه الحال حتى تأخذ المال.. لذا من الأفضل أن تأخذه بلباقة».

منحها نظرة جانبية ساخرة: «يستحسن لمرضاك أن يتخذوا احتياطاتهم. فمنظر الدكتورة والكر مرعبٌ حين تثور».

ـ لا يبدو عليك الرعب.

ـ لست مرعوباً.. لكنني سآخذ المال.. أفهم أن هذا مهم جداً بالنسبة لك.

سألت متلهفة: «لكن، هل تفهم لماذا؟».

وقفا عند إحدى إشارات السير على مشارف البلدة.. أخذ تشارلز المال منها، ثم دسه في جيبه: «أجل أفهم بالتأكيد.. على المرء أن يسدد ما عليه من ديون.. إنها مسألة شرف.. وهذه كلمة غير متداولة في أيامنا.. لكن يبدو أنني مضطر إلى تسوية المسألة.. وأنت كذلك».

ابتهجت لأنه فهم، ثم قالت بهزء يماثل سخريته: «يسرني أننا سوّينا هذا الأمر.. ويسوؤني أن تدين امرأة لرجل».

قال ضاحكاً: «هذه مسألة أخرى.. لكن لا تقلقي. فأنت قادرة على الاعتناء بنفسك، سواء كنت مديونة أم لا».

ثم توقف عند المنعطف: «هذا أقرب مكان يمكن أن نتوقف فيه».

بدأ الناس بالدخول إلى الملعب المقفل.. وهناك اختفى تشارلز، فاختارت لورا مقعداً مطلاً على المدرج، وجلست تتأمل ما حولها بهدوء.

حين خرج الفريق إلى الملعب للتحمية، تخلت عن أفكارها.. كان شبان سيدني يرتدون زياً موحداً أخضر لماعاً. بدوا أضخم وأكثر ثقة بنفسهم من فريق تشارلز. إذ ارتدى أولئك زياً باهت اللون منحهم مظهراً مزرياً، أخبرها تشارلز فيما كانا على الطريق، أنه لا يتوقع منهم الفوز.. لأنهم لم يجتمعوا كفريق إلا منذ شهر ونصف، وأضاف:

ـ لكنهم سيقاتلون جيداً.

وكان على حق.

كان مهاجما فريقه لاعبين ممتازين.. إنما المدافعون كانوا ضعفاء، وخسروا النقاط في رميات الجزاء. وما أكثرها!.. وبما أن اللعبة كانت خشنة فلم يبدأ الحكم لحظة في الشوط الأول، كان فريق سيدني متقدماً بثماني نقاط. في آخر ثلاث دقائق من المباراة، سجل أحد مهاجميه نقاطاً، ليرفع النتيجة إلى سبعين للفريقين... لكن، خلال لحظات، تمكن لاعب الوسط الفارع الطويل في فريق سيدني، من أن يسجل نقاطاً، رفعت النتيجة النهائية إلى اثنتين وثمانين مقابل أربع وسبعين.

صفقت لورا كالبقية، وهي تراقب تشارلز يجمع فريقه حوله.. لم تكن تسمع كلامه، إلا أنها أحست بقوة كلماته، ورأت أحمر الشعر ينتعش من جديد، فيما الفريق كله ينفجر بالضحك، ثم راقبتهم يخرجون من الملعب ركضاً ويختفون في غرف الملابس. لوح تشارلز لها. فنزلت من المدرج لتقول له بصدق: «كانت مباراة مشوقة.. لقد قمت بعمل رائع في ستة أسابيع فقط».

ـ شكراً.. سأغيب لبضع دقائق.. يجب أن أقفل المكان.

ـ سأنتظرك في الخارج..

ركض مبتعداً عنها، على أرض الملعب الخشبية اللامعة.. وسارت نحو المخرج، وهي مدركة أنها تعلمت الكثير عن تشارلز هذا المساء.. فبدت مسألة الأحرف الغامضة في غاية التفاهة.

في الخارج، كان الجو أكثر برودة بقليل. اختفى الجمع الكثيف.. فسارت على الرصيف وجلست قرب الجيب، فوق جدار حجري، خلفه زقاق ضيق شديد الظلمة. كانت المحلات مقفلة.. رأت مجموعة مراهقين يتجمعون حول محل لبيع الألبان في أبعد طرف من الشارع.. وتذكرت سوآن وستيفن.. وابتسمت.

فجأة، تصاعد وقع أقدام متسارعة، وسمعت شجاراً من خلفها.. ثم صوت ضربات، وصرخة مخنوقة.. تلاشت البسمة عن وجهها.. وبدأ قلبها يخفق. فوقفت، ونظرت إلى الزقاق المظلم. في البعيد، لمحت ثلاثة أشخاص يتعاركون.. بالأحرى، انقض اثنان منهم على ثالث تحت أقدامهما.. ثم ارتفعت

صرخة مخنوقة أخرى، ثم قبضات عنيفة مؤلمة.

في صغرها، شهدت لورا عملية سطو وسلب، فأصيبت برعب من العنف الجسدي. ومن دون أن تفكر، تدفق الأدرينالين في عروقها، فأطلقت صرخة مروعة، وركضت في الزقاق، وهي تلوح بحقيبتها وتصرخ: «توقفا عن هذا».

ضربت رأس أحدهما بحقيبتها، وأطلقت صرخة مخيفة أخرى.. تناهت إليها سلسلة من الشتائم أوقفت شعر رأسها.. لكنها زادتها غضباً وانفعالاً، فوجهت إلى المهاجم الآخر ضربة قاضية. وهنا، تمكن الشاب الملقى على الأرض من ركله.. ثم لمع مصباح يدوي في الزقاق وقال صوت عميق:

ـ ما الذي يجري هنا؟

لم يكلف المهاجمان نفسيهما عناء الرد.. بل وقفا متعثرين، وهربا في الاتجاه المعاكس. فاجأ الأخير لورا بضربة من ذراعه كادت توقعها أرضاً، لكنها ارتطمت بالجدار، وصاحت ألماً.

ـ لورا.. هل أنت بخير؟ يا لهذين النذلين!

إنه تشارلز! تقدم رجل الشرطة ومصباحه اليدوي في يده. بدا وكأنه على وشك أن يرتكب جريمة، فأمسكت بكمه وقالت شاهقة:

ـ الولد على الأرض.. أهو مصابٌ؟

كشف نور المصباح عن ولدٍ لا يزيد عمره عن الخامسة عشرة. كان قميصه ممزقاً وينطلونه متسخاً، وقد أقعده الألم على الأرض، فيما وجهه ملطخ بالدماء.. ركع رجل الشرطة أمامه وقال بتعاطف:

ـ لا بأس جوني.. ستكون أفضل حالاً بعد دقيقة.. هل أنت بخير آنسة؟

ـ أنا بخير.. لا أدري لماذا يسمون عظام المرفق «عظام المرح». ولا شيء مرح فيها.

قال تشارلز: «وهل أصبت في مكان آخر؟».

ـ لا أعتقد.. هل سيكون بخير؟

قال تشارلز بخشونة: «لقد تلقى ركلات مؤلمة.. لم يكن هذان الولدان يلعبان لورا.. بل كانا يقاتلانه بشراسة».

حين ضمها بين ذراعيه، اكتشف أنها ترتجف كريشة.. فشد عليها.
ـ كان كل منهما يزن ضعف حجمك، بحق الله.. ألا تفكرين أبداً؟
ـ لم أدرك ذلك حتى وقفا.
كانت تزداد ارتجافاً.. وأحست بالغثيان.. فدفنت وجهها في كتفه وهي تتمتم: «أتقول إنه ما كان علي أن أتدخل؟».
ـ لا.. بل أقول إنني أشكر الله لأنك لم تصابي بأي أذى.
تجمع حشد صغير عند مدخل الزقاق.. لقد وصلوا حين لم تعد بحاجة إليهم!.. قالت: «سيفيدني شراب ما».
ـ سنشربين ما إن نصل إلى المنزل. لقد اشتريت زجاجة عصير فاكهة متنوعة.
ـ هل نذهب إلى المنزل الآن؟
بدت متعبة وقد حفر الألم عميقاً في مختلف أنحاء جسمها. لكنها لن تخبره عن هذا، بل قالت:
ـ لو أسندتني على ذراعك، فلن أرفض.
قال ساخطاً: «ماذا أفعل بك لورا؟».
ـ خذني إلى البيت.
ـ لم أقصد هذا.. وأنت تعرفين.. لقد أقدمت على عمل شجاع هذا المساء.. وأنا فخور بك.
ترقرق الدمع في عينيها، وقالت مرتجفة:
ـ شكراً لك.. والآن.. أرجوك، خذني إلى البيت قبل أن أنتحب كطفل صغير.
مد إليها ذراعه بوقار، فشعرت بحرارة بشرته وقساوتها في آن.. تجنبت نظرات التساؤل التي انهالت عليها عند مدخل الزقاق، وراحت تراقب جوني وهو في سيارة الشرطة.. ثم ساعدها تشارلز على الصعود إلى الجيب.. فمالت إلى الخلف وهي تتنهد بارتياح ثم أغمضت عينيها.
لا تذكر الكثير عن رحلة العودة إلى المنزل. ربما نامت، إذ لم تصح إلا بعد ما انعطف تشارلز إلى الطريق المرصوفة بالحصى التي توصل إلى الكوخين.. تمتمت:

«لا أعتقد أننا سنشرب عصير الفاكهة هذا المساء.. أحتاج إلى النوم».
اتجه إلى الطريق الأيسر، من دون تعليق، ثم توقف قرب كوخها، وفتح باب السيارة. فترجلت وهي تكبح صرخة ألم أصابت كاحلها الأيمن.
سألها تشارلز بحدة: «ما الأمر؟».
ـ لا شك أن أحدهما ركلني على عظمة ساقي.. لا ترمقني بهذه النظرة تشارلز.. سأعيش.
ـ سأدخل معك.. أين المفتاح؟
هتفت: «ولماذا أنت غاضب مني؟».
لان وجهه:
ـ لورا.. عزيزتي.. لست غاضباً منك.. كم أود لو كان الاثنان هنا الآن. فلو حدث ذلك لوجهت إليهما ركلات يستحقانها.
ـ أوه.. فهمت.
ـ أنا ألوم نفسي.. ما كان علي أن أتركك وحدك في الخارج.
ـ ما كنت لتعرف ماذا سيحدث.
ـ كان علي أن أتوقع هذا.
ـ تشارلز.. لست منجماً.
تلاشى التوتر عن وجهه: «لا أتمنى أن أكون منجماً».
ـ إذن، لا تلم نفسك، فأنت لا تستطيع التكهن بكل شيء.
ـ أنت توبخيني.. أليس كذلك؟
ـ أجل.. أعتقد هذا.
قال من دون مقدمات:
ـ أنت لطيفة معي لورا.. تعاملينني وكأنني...
وصمت.
كان كاحلها يؤلمها كثيراً، وتحرقت شوقاً للاستلقاء في الفراش.. لكنها صبرت حتى ينهي تشارلز كلامه.
ـ كأنك ماذا؟

ـ كنت سأقول: كأنني إنسان عادي.
ـ حسن جداً. ألست إنساناً عادياً؟
ـ أنا.. لا أستطيع.. أن أرد على هذا.. لقد أخبرتك القليل عن والدي.. ولكن لم تكن ظروفي دائماً عادية.
غيّر دفة الحديث فجأة: «وكأنك ستفقدين الوعي».
ردت بابتسامة خفيفة:
ـ هذا ممكن.. المفاتيح في حقيبتي.
وجد المفاتيح بسرعة، وقال:
ـ ابقي هنا.
فتح الباب وعاد ليرفعها عن الأرض. فلفت يديها حول عنقه، وتركت خدها يستريح عل كتفه، وتمتمت: «أنت قوي جداً».
سبق لكيث أن حملها بين ذراعيه يوماً ودار بها في أرجاء المنزل، إلا أن أحداً لم يحملها بمثل هذا المزيج من القوة واللطف من قبل. واكتشفت أنها تحب هذا.. كثيراً.
ـ أيهما غرفتك؟
ـ عند الباب الأخير.
دفع الباب بقدمه، ودخل الغرفة ليضعها فوق السرير.. وقال معلقاً:
ـ لست ثقيلة الوزن.
ـ مئة وعشرين باوند!
ـ فلتتفاد أي شجار جاد.. فالواضح من سيفوز بيننا.
ـ أنت رجل معقد ولا يمكن أن تستخدم القوة تشارلز.
ورفت رموشها نحوه بخبث. لكنه لم يتأثر!
ـ ارفعي ساق بنطلونك قليلاً! أريد أن أعاين ما أصاب كاحلك.
كان البنطلون ضيقاً عند الكاحلين.. فقالت:
ـ لا أستطيع رفعه، إنه ضيق جداً.
نظر إلى قدمها وقال:

ـ إذن، ارتدي ثوب نومك.. سأكون مثال السيد المهذب.. لكنني أريد رؤية الضرر.
ـ تشارلز.. لن تؤذيني بضع كدمات.
ـ لورا.. نفّذي ما أمرتك به.
ـ تبدو وكأنك أب فظيع!
ـ لا أشعر أبداً بالأبوة! والآن نفذي ما قلته لك!
ـ أوه.. وهل ستستخدم ضخامتك لتسيطر علي؟
بدا غاضباً: «أجل.. قد أعتمد على هذا الحل.. لم أعرف قط امرأة على هذه الدرجة من الاستقلالية والعداء وكثرة المجادلة!».
صرخت: «إذن أنت تفضل النساء اللواتي ينفذن الأوامر حرفياً وسريعاً؟ إذا كان الأمر هكذا، فأمامك امرأة مختلفة، تشارلز ريتشاردز!».
ـ سأخرج من هذه الغرفة، وأعود بعد خمس دقائق بالضبط.. وسأرى الكدمة على ساقك، بعدها سأذهب.. هل هذا واضح؟
ـ إذا كنت سأرتدي ثوب نومي فلأنني أريد هذا.. وليس لأنك تأمرني!
ـ.. وأنا لست واثقاً أبداً أنك امرأة مختلفة.
رفع حاجبه بسخرية وهو يخرج، ثم أغلق الباب خلفه بسرعة.
استخدمت لورا كلمة سمعتها كثيراً من دارين.. كانت كلمة قصيرة نابية. تعبر عن مشاعرها. ثم فتشت تحت الوسائد عن ثوب نومها.. كان ثوبها جميلاً يصل حتى الركبة، من القطن الوردي، تزينه شرائط من الدانتيل.. عندئذٍ تمنت لو أن ثيابها من الحرير الفرنسي، لتظهر مثالاً للأناقة والجمال بإغراء وأناقة.. كانت تريد من تشارلز أن يعاني قليلاً. خلعت قميصها وبنطلونها بغضب.. ورمتهما على الكرسي ثم ارتدت ثوب النوم. بعدها نظرت إلى ساقيها برعب.
يبدو أنها تلقت أكثر من ركلة.. إذ امتدت عدة كدمات متورمة ما بين ركبتيها وكاحليها، وكشفت بشرتها عن جروح هنا وهناك.. سينقلب اللون الوردي إلى أحمر قاتم، ثم إلى أصفر. وكم ستبدو جميلة في بنطلون قصير.. أوه..

اللعنة!

سمعت دقة على الباب. فجرت نفسها إلى الروب قبل أن يدخل تشارلز..

قالت بحدة: «السيد المهذب كان سينتظر حتى يُطلب منه الدخول».

أدركت اللؤم في صوتها لكن بعد فوات الأوان.. فتمتمت:

ـ تشارلز.. أنا آسفة.. لماذا نتشاجر هكذا؟

تعمد أن يبقى قرب الباب:

ـ أظنه الإحباط. ألا تعتقدين هذا؟

رفعت حاجبيها.. فتلعثمت وهي لا تدري ما تقول:

ـ لكنني لا.. نحن لا نستطيع..

ـ لا داعي لنفعل شيئاً لورا.. لكن فلنعترف على الأقل بالتجاذب القائم بيننا.

جلست على حافة السرير تلملم أطراف ثوبها دون وعي.. ثم أعلنت فجأة: «لم أنم قط علاقة مع بارت».

قال بحزم: «عليك أن تتركي هذا الرجل.. فلو كان يحبك لطلب يدك قبل الآن فكيف يعقل لرجل يحب امرأة أن ينتظر ثلاث سنوات حتى يطلب يدها... ولكن هل أحببت رجلاً قبل بارت».

ـ نعم وقعت في حب زميل لي في الجامعة ولكن علاقتنا لم تدم.

ـ بما أننا نكشف عن مكنونات قلبينا، سأقول إنني، في هذا الوقت بالذات، أريدك كما لم أرد أحداً قط، ولكنني لن أقدم على شيء. قد يبدو هذا تعجرفاً.. لأنني أفترض أنك تبادلينني المشاعر. لكنني لن أفعل. ليس الآن.. لا تطلبي مني أن أشرح السبب. لأنني لا أستطيع.

لا بد أنه لمح لمعان التردد في عينيها فأكمل: «ليس لأنني لا أريدك. لا، أبداً».

نظرت إلى الأرض وقالت: «أوه.. أنا أزداد احمراراً وأنت بقربي».

ـ هذا يرضي غروري.. والآن أريني كاحلك.

رفعت ساقيها دون كلمة، فركع أمامها، ويده تلتف على كاحلها.

ـ يا إلهي لورا.. لا بد أنهما كانا برتديان أحذية برؤوس حديدية.

ـ لكنني لم أشعر بأي شيء.. صدقاً.

رفع نظره إليها، وتعابير وجهه مشبعة بالقلق، فجاهدت لئلا ترمي بذراعيها حول عنقه وتعانقه.

لا بد أن وجهها كشف عن شيء من مشاعرها.. إذ ترك كاحلها وكأن ناراً أحرقته، ثم وقف ليقول بخشونة: «قد لا تتحمل نواياي الطيبة كثيراً. من الأفضل أن أخرج من هنا بسرعة.. ضعي ضمادةً باردة على هذه الكدمات، فتساعد في تخفيف الورم. أما أنا، فسأمر صباح الغد لأتفقدك. ليلة سعيدة».

ـ ليلة سعيدة تشارلز.

كان يتمسك بإطار الباب.. وأحست بالجهد الذي بذله ليبدو طبيعياً.

ـ ليت هاتفك موصول.. لأنني لا أحب أن تنامي وحدك هنا.. لا سيما الليلة.

قالت بثبات وهي تظهر ابتسامة مغتصبة: «سأكون بخير.. لا تراودني الكوابيس أبداً. سيرغمني التعب الشديد على النوم ليوم كامل».

ـ إذا احتجت إلي فأنت تعرفين مكاني.. علينا أن نحل هذه المشكلة قبل نهاية الشهر.. لورا.

ـ أعتقد أننا سنفعل.

وإلى أن نفعل، لن أخبرك أنني أساوي مليون دولار.

وكأن الكلمات نفدت منه، فقال: «أراك غداً».

ولوح لها بيده مُحبياً ثم خرج.. سمعته يقطع غرفة الجلوس، ويغلق الباب خلفه.. يجب أن أنهض لأقفل الباب.. لكن المسافة طويلة.. لذا لم تفعل.

* * *

٥ ـ لا تدفع النهر . . .

غفت لورا طيلة ساعات الظلام. وظلت مستغرقة في النوم حتى بعدما سطعت الشمس فوق الأفق، وصدحت جوقة العصافير بالغناء. نامت حتى فاتها الوقت الذي اعتادت أن توقظ فيه سوآن للمدرسة، والوقت الذي تصل فيه إلى عملها . . . ارتفع القرع على بابها الخارجي، وتوجهت أقدام إلى باب غرفتها، لكنها ظلت نائمة.

وقف تشارلز عند الباب . . حيث وقف منذ اثنتي عشرة ساعة بالضبط . . كان الشعر الأسود غارقاً في الوسادة . . وترامت ذراع نحيلة فوق الأغطية، فيما الأنامل مطوية بخفة . . فسمع صوت تنفسها الهادىء الآمن.

فجأة، رن جرس الهاتف في غرفة الجلوس . . كان عالياً جداً، فاستيقظت لورا بغفلة. حين سمعت الرنين الحاد مرة أخرى، تفاجأت بتشارلز يقف أمامها. كانت لا تزال نصف نائمة، لكنها نهضت متأوهة من ألم عضلاتها، ثم وضعت قدميها على الأرض. هنا، رن جرس الهاتف للمرة الثالثة.

تجاوزت تشارلز، الذي ظل واقفاً لا ينوي المساعدة. والتقطت السماعة، قبل أن يزعجها مجدداً ذلك الرنين الذي يثقب الآذان.

ـ آلو؟

أجابها صوت امرأة رتيب: «هنا شركة الهاتف سيدتي . . لقد وصلنا خط هاتفك. وستأتيك الفاتورة ابتداء من هذا التاريخ، يضاف إليها رسوم الخدمة. أرسلي أسئلتك إلى مكتب العمل. شكراً لك».

وانقطع الاتصال . . فقالت لورا بعد أن أقفلت السيدة: «وأنت أيضاً . . ». ثم أعادت السماعة إلى مكانها.

كانت كل أطرافها تؤلمها . . نظرت إلى ساقيها. قرأت الظلال الحمراء المتورمة. أما ضلوعها التي صدمتها بالجدار، فكانت تؤلمها أكثر . . ثم نظرت إلى تشارلز وقالت بوضوح: «تشارلز . . إذا كنت تحبني . . سخن الماء فوق النار، وأعدلي فنجان قهوة قوياً جداً».

قال بتكاسل: «سأطيع بكل سرور . . بعد أن تعانقيني».

كان حافي القدمين، يرتدي بنطلوناً قصيراً مقصوصاً، وقميصاً ملتصقاً بجسمه . . لم يكن ثوب نومها حريرياً رفيع الطراز، إلا أنه مغرٍ بكل تأكيد.

ـ لا أظنها فكرة صائبة.

ـ لورا . . أين روح المغامرة؟ من يغامر في الأزقة المعتمة لا يمكن أن يخاف من عناق بسيط.

قالت بحرارة: «أوه . . بلى . . أنا أخاف . . ما يحدث لي في الأزقة المظلمة لا يقارن بما يصيبني حين أقترب منك بهذا الشكل».

ـ سبق أن قلت لك إنك ترضين غروري. عناق واحد . . هذا كل شيء.

لكن لورا لم تستطع أن تقاوم التحدي . . فقالت: «أتشرب القهوة أولاً؟».

ـ لا . . أفضل خطتي أنا.

ـ حسناً إذن. صباح الخير تشارلز.

أغمضت عينيها . . كان سمعها في العادة دقيقاً، لكن اقترابه منها حدث من دون صوت. شعرت بيديه تتحسسان ذراعيها ببطء، بدءاً من المعصم وانتهاءً بالكتفين وعيناها ما زالتا مغمضتين.

ـ ما هذا بعناق.

أجابها وأنفاسه تطيّر شعرها: «إنها المقدمة فأنا أفضل العناق الطويل . . استرخي لورا».

كيف لها أن تسترخي، وكل أحاسيسها تتوق إليه؟ . . وصلت كفاه إلى كتفيها ثم شدها إليه فشعرت بقوة صدره، وتساءلت هل يسمع خفقات قلبها.

حتى تلك اللحظة، كان يسيطر على نفسه.. ولكن ما إن قربها أكثر إليه حتى راحت سيطرته أدراج الرياح فضمها بجنون وشوق وكأنه يريد أن تبقى له إلى الأبد.

تعلقت لورا به، وشوقها كشوقه، ظاهر ومفاجىء.. وحين رن الهاتف لأول مرة.. كانت ضائعة في أحاسيس غريبة.. لكن الجرس رن مرة أخرى، فخفف تشارلز من قبضته، وافترقا، لتسرع إلى الهاتف وتقول بصوت متكسر: «آلو؟».

ـ آسفة لإزعاجك سيدتي.. لكنني نسيت أن أسألك هل أنت بحاجة إلى دليل جديد.

شهقت لورا ورأسها ما زال يدور: «أوه.. لا.. شكراً.. لدي واحد».

ـ أهلاً بك سيدتي.. استمتعي بيوم جميل.

أعادت لورا السماعة إلى مكانها وأدارت القرص لتخفف من قوة رنين الجرس.. ثم استندت إلى الجدار ونظرت إلى تشارلز.. كانت عيناه تشتعلان ناراً.. لم تقل شيئاً، خشية أن تتلفظ بكلمات تافهة أو عنيفة.. بل لزمت الصمت.

قال بصوت ثقيل: «لقد كسرنا حاجزاً بيننا.. أنا أريدك لورا».

ـ نحن لا نكاد نعرف بعضنا بعضاً.

ـ قد لا يهم هذا.. وقد يكون أساس كل شيء.

ضمت ذراعيها إلى صدرها وقالت بعجز: «لا أدري.. جئت إلى هنا وأنا أعتقد أنني أحب رجلاً.. وها أنذا على وشك الوقوع في حب رجلٍ آخر».

ـ لا أظنك تحبينه.

ـ إذاً، يا لأحكامي العاطفية! يا لاستقراري النفسي!!

ـ لا تقسي على نفسك.. كلنا نرتكب الأخطاء.. بل كوني مسرورة لأنك لم تتزوجيه.

ارتجفت: «سوف أرتدي ملابسي.. ماذا عن القهوة التي وعدتني بها؟».

ـ لقد ضغطت عليك كثيراً.. صحيح؟

هزت رأسها إيجاباً، وأشاحت وجهها عنه ببؤس.. فأردف: «أنا آسف.. إياك أن تدفع النهر.. فهو يتدفق وحده.. سيحين الوقت لورا.. أعرف أن هذا سيحدث».

اكتسبت لورا، خلال عيشها في غرانتهام، طباعاً سوية، لعل أهمها رباطة الجأش. لكنها الآن تحس برغبة في رمي دليل الهاتف إلى الجدار أو الانغماس في بكاء طويل.. أو الاثنين معاً.. تمتمت: «أتوقع أن تكون القهوة جاهزة حين أنتهي من الاستحمام».

ـ هل سمعت ما قلته؟

كان في صوته صلابة لا تلين، فردت بجنون: «أجل سمعته.. لكن لا أملك أدنى فكرة عن الجواب. لذا، سأستحم.. اتفقنا؟».

وبقدر ما استطاعت من وقار، مرت من أمامه.. فلم يحاول أن يمنعها.

أعادت المياه التوازن إلى لورا. ارتدت بنطلون جينز، وقميصاً طويل الأكمام، ثم ذهبت إلى المطبخ وشعرها لا يزال مجعداً رطباً حول أذنيها.. أمسكت كوب قهوة بتصاعد البخار منه، وتمتمت بامتنان: «شكراً تشارلز».

ـ أردت أن أحضر التوست لكنني لم أجد الخبز.

ـ أوه.. إنه في الخزانة هناك.

وضعت كوبها من يدها وفتحت الخزانة الأخيرة. ثم مدت يدها لتأتي بالخبز.. وفيما هي تنحني إلى الكيس البلاستيكي، سمعت صوتاً.. وإذا بجسم رمادي صغير يمرّ بالرف، ليجد نفسه عالقاً في الزاوية، ويرتد نحو يدها.. فأرة!

رمت لورا الكيس ثم تراجعت وهي تصرخ، فوقعت على رأسها عند رف المغسلة، وانهارت على الأرض وهي تعاني من جروحٍ طفيفة.

ـ لورا..

تمتمت وهي تحاول النهوض: «هناك فأرة في الخزانة.. أنا أخاف منها.. تصرف يا تشارلز».

لكن، بدلاً من أن يسرع إليها، أخذ يضحك ضحكة مرحة حقيقية.. صرخت: «تشارلز!».

ما إن رأى وجهها الغاضب حتى راح يقهقه بقوة أكبر. . أخذت كوبها وتراجعت إلى الزاوية البعيدة من المطبخ. . وقالت ببرود: «أنا مسرورة لأنك تستمتع بالأمر».

كان يمسح عينيه، وصدره ما زال يهتز بالضحك.

ـ تتحمّلين الضرب من دون أن يرف لك جفن. . لكن فأرة لا تساوي حجم كفك، تصيبك برعب شديد. ألا يفترض أن تقفزي فوق الكرسي؟ ومن ثم تصرخين قدر ما تشائين؟ أوه لورا. . لقد ضبطتك. . لأول مرة تتصرفين كأنثى مثالية.

ـ خلصني من هذه الفأرة اللعينة. . ولا تجرؤ على الضحك مني مجدداً!

انحنى على الأرض، ونظر إلى داخل الخزانة. . ثم حرك أغراضاً على الرفوف.

ـ أظنها هربت.

قالت بمرارة: «أراهن أنها مختبئة. . تنتظرني».

ـ يمكن أن أنصب لها فخاً.

حدقت إليه ثم قالت: «كل ما أطلبه هو أن تمسك بالفأرة من ذنبها، وترميها إلى الخارج».

ـ كي تتسلل وتعود ثانية.

تنهدت: «أعتقد أنك على صواب. . لكنها طريقة جيدة للحمية. سأبقى خائفة من فتح خزانة المأكولات؛ أيمكن أن تدخل كيس الخبز؟».

أخذ الرغيف من الخزانة: «لا. . هل تريدين التوست؟».

ـ أرجوك. .

أكلا على الطاولة قرب النافذة. كان الضباب قد انتشر خلال الليل، ليحوّل المنظر إلى حلقة أشجار داكنة وعشب مبلل. بين الحين والآخر كان يطير نورس أمامهما. ثم، اختنق صوت البحر. . وسكن الهواء.

قال تشارلز وهو يشرب القهوة: «الطقس مناسب للعمل. . إن عملي يتراكم يوماً بعد يوم. . لِمَ لا نطهو العشاء معاً لورا؟ هل تودين ذلك؟».

ـ في منزلي أم في منزلك؟

ـ في منزلي. . من دون فئران. . سأذهب بعد قليل إلى البلدة لأرسل بعض الرسائل، ولأشتري قطعتي لحم.

أرجع كرسيه إلى الوراء.

ـ لا تدرسي كثيراً. . أيمكنك هذا؟

وانحنى إلى الأمام ليقبل خدها، ثم خرج.

بقيت لورا جالسة قرب النافذة لعدة دقائق شاردة. . ثم تنهدت، وطردت تشارلز من أفكارها، وحملت كتاب الكيمياء العضوية وراحت تحاول فك رموزه.

لطالما تمتعت بالقدرة على التركيز. بعد قراءة أربعة فصول، وبعد ثلاث ساعات من الدرس، أدركت أنها جائعة. . فأعدت سندويشاً، وأخذت تقضمه قرب النافذة، ثم قررت التنزه. كان النور الناعم الرمادي مغرياً للغاية. . فارتدت حذاءاً مطاطياً وسترة واقية من الريح وخرجت.

سارت لورا على الشاطىء ببطء، ويداها في جيبي سترتها. . كان حذاؤها يخلّف آثاراً فوق الشريط الرملي الضيق، فوق آثار المد. ثم توقفت. . ونظرت إلى الرمل. . فرأت آثاراً أخرى تنضم إلى آثار قدميها، بدت محفورة في الرمال، عميقة وأقل حجماً. . لا شك أنها آثار غزال تائه في الضباب.

تطلعت جيداً أمامها، وأرهفت سمعها. لكنها لم تر إلاّ الضباب الرمادي والصخور. . سارت بسرعة أكبر. . لم تعد وحدها في الضباب. . إنها متأكدة أنها ستقع الآن على جلدٍ بني وعينين مخمليتين.

استمرت الآثار تتقدم نحو المنحدر. . وفجأة، على بعد مئة يارد، اختفت الآثار. . لا بد أن الغزال اتجه إلى الصخور.

حين تسلقت لورا الصخور رأت الآثار تمتد عبر السهل. لقد سار الغزال على العشب وأزال البلل عنها. . لحقت به إلى أن اختفت آثاره مجدداً بين أشجار مائية متشابكة، ومستنقعات متفرقة.

ببطء شديد، بدأت تعود أدراجها وهي تتبع الآثار المذكورة، ثم سارت فوق الرمل وهي تضيف صف آثار ثالث، فقررت أن تتجه رأساً إلى كوخ تشارلز،

لتخبره بما حصل. سوف يفهم هذا الإحساس المخادع الذي ولده فيها مخلوق آخر من عالم آخر.

حين وصلت إلى الكوخ وقرعت الباب سمعت صوته، وأدركت أنه يتحدث على الهاتف.. لكنه لم يسمع قرعها على الباب.

ترددت فهي لا تريد أن تسترق السمع. تساءلت هل يستحسن أن تعود بعد دقائق.. وفي خضم ترددها، لاحظت فيه شيئاً مختلفاً.. فهذا الرجل يتكلم بصوت بائر متسلط.. يفرض كلامه بالقوة، ولا يكاد يسمح للشخص الآخر أن يتكلم: «أنا لا أهتم أبداً بما يريده بانسون.. إنها مليونان ونصف، لأجل الله.. أيظن أننا لن نكسب منها؟».

صمت قصير: «قلت لك دع بانسون خارج العملية.. ألا تسمع؟ خارج العملية.. لا مزيد من النقاش.. علينا أن نقوي هذه الأسهم، حتى ولو اضطررنا إلى بيع بعض أسهم آكتو لنحقق هذا».

صمت مشحون آخر: «أربعة ملايين ليس ثمناً مرتفعاً جداً..».

تقدم إلى غرفة النوم وهو يحمل سماعة الهاتف في يد، ويلوّح بالجهاز في الهواء باليد الأخرى. وهنا، رأى لورا، فسكت فجأة عن الكلام.

كان يبعد عنها عشرين قدماً.. مع ذلك، أحست بقوة غضبه وكأنها تلقت صفعة قوية..

ـ ماذا تفعلين هنا بحق الله؟

أجابته بصوت ضعيف واضح: «قرعت الباب.. لكنك لم تسمعني».

ـ منذ متى تقفين هنا؟

ـ منذ دقيقتين فقط.. تشارلز.. أنا..

قاطعها بغضب: «كيف تسترقين السمع إلى حديث خاص؟».

ـ لم أكن..

ـ ما أنا فشه سري للغاية.. لأجل الله، لورا.. لم أتوقع هذا منك.

ـ لم أكن أتجسس عليك!

تجاهل إنكارها المذعور، وبدت عيناه بقسوة الحجر على الشاطىء.

ـ ابتعدي من هنا.. لا أستطيع أن أكلمك الآن. عودي فيما بعد.

وأدار لها ظهره.

أحست أنها مريضة.. وتعثرت خلال نزولها السلم، ولكن كل هدفها الآن أن تبتعد أكبر مسافة ممكنة عن هذا الرجل... رجل جرحها في الأعماق بعينيه وصوته، وتركها مصابة بالغثيان والارتجاف.

ركضت نزولاً إلى الشاطىء، واندفعت تجري فوق الرمال..

أحست بألم في جنبها.. فأبطأت مسيرها. حينها، اكتشفت أنها بلغت الرأس الأرضي المندفع في البحر. كانت المياه تمتد وتتراجع.. فتسلقت الصخور، وجلست. كانت الصخور ناعمة جداً تحت تأثير هجمات البحر التي لا تتوقف.. نظرت إلى البعيد.. فرأت أن أعشاب البحر تتماوج مع المد، وكأنها شعر امرأة غارقة.

جلست لورا لزمن طويل.. إلى أن هدأت أعصابها وتوقف ارتجافها الداخلي العميق.. أخيراً بدأت تفكر.. تشارلز غريب بالنسبة لي. غريب تماماً. ظننت أنني أعرفه، لكنني لا أعرفه.. لقد انقلب علي كالمتوحش.. ولا أعرف لماذا.

وبمقدار ما تضاعفت الأسئلة، ازدادت قلقاً.. بمقدورها أن تعد على أصابعها كل ما تعرفه عنه.. لقد ذكر أباً.. لكن ماذا عن أم، أخوة وأخوات؟ لماذا فسخ خطوبته؟ أين نشأ؟ ما هو عمله؟ كيف يستطيع أن يحصل على مثل هذه العطلة الطويلة؟ لماذا غضب حين سمعته يتحدث عن ذلك العمل؟ مبالغ المال التي ذكرها.. ضخمة.. لكن، هل يبرر هذا ردة فعله؟

خفق قلبها المريض، وتساءلت هل هو متورط في جرم غير قانوني.. لعله يعقد صفقات سرية لا تذكر في التقرير السنوي.. أو ينفذ معاملات تجارية خفية عن حملة الأسهم.. ومأموري الضرائب.

فكرت بيأس: «أرجوك ربي.. ليس تشارلز.. لكنه الاستنتاج الوحيد الذي يفسر ما لا يُفسّر».

جلست حتى بللت الرطوبة شعرها.. واخترق البرد ثيابها.. ثم عادت تسير على طول الشاطىء. لقد توصلت إلى استنتاج واحد: لا تريد رؤية تشارلز

اليوم.. فآخر ما ترغب فيه، هو عشاء حميم في كوخه.. فليأكل قطعتي اللحم وحده، وليختنق بهما!

اقتربت من كوخها بحذر، مخافة أن يكون بانتظارها. لكن، ما من أثر له.. دخلت بسرعة، وارتدت بنطلون جينز جاف وسترة أخرى، ثم أخذت قصة، ووضعتها في حقيبتها ثم خرجت مرة أخرى، وقادت السيارة إلى الطريق العام.

كان الضباب لا يزال مخيماً على البحر والبابسة. أما الطريق فتتلوى مع الشاطىء، وتتخللها فسحات موحشة من الصنوبر الأخضر. كان الصمت سيد الموقف. إنها أرض قاسية، غير سخية.. لا يمكن انتزاع الطعام من الأرض، أو السمك من البحر إلا بالكدح الشاق.

في «كانالون غت»، جلست قرب الشاطىء تراقب طيور الطيطوى تتنقل بين الصخور.. في الضباب، لمحت مالك حزين أزرق، يصفق بجناحيه بصمت، ثم يقف على الرمال من دون حراك، حتى بللته المياه الضحلة.. كان المغيب قد أعلن وصوله واستحال ضباب المساء رمادياً قاتماً.. ثم عادت إلى سيارتها.

كانت جائعة، لكنها لم ترغب في العودة إلى الكوخ وفي إعداد وجبة طعام، لتأكلها وحدها.. إنها تحتاج إلى آنٍ، يشعرها البرتقالي، وصوتها الناعق...

حين دخلت المطعم، فتشت في موقف السيارات عن جيب رمادي وأسود، ثم أوقفت سيارتها خلف شاحنتين ودخلت.. كان هناك دزينة من الناس يتوزعون على مختلف الطاولات.. اختارت طاولة في الزاوية البعيدة، وابتسمت للنادلة التي طلبت منها السباغيتي والسلطة، ثم أخرجت كتابها.

كانت مستغرقة في قراءة الكتاب، وشوكتها مليئة بالسباغيتي، حين جذب أحدهم كرسياً قرب طاولتها وجلس.. رفعت عينيها، ورمت شوكتها، ثم قالت بصوت مرتفع: «اذهب من هنا».

قال تشارلز بشفتين مشدودتين: «كنت أفتش عنك منذ ثلاث ساعات.. أنسيت أنه يفترض أن نأكل معاً؟».

قالت بدون توقف: «أنا لا آكل مع من يعاملني كالقذارة، ثم يفقد أعصابه وينهمني باستراق السمع لأنني وصلت فجأة إلى منزله.. كنت أستمتع بعشائي

حين وصلت.. فهل تسمح بأن تذهب من هنا؟».

-لي الحق أن أكون في هذا المطعم مثلك تماماً.. ولقد جئت لأعتذر.

-إذا لم تذهب.. سأحرجك وأحرج نفسي. سآخذ طعامي وأنتقل إلى طاولة أخرى.

مال بجسمه الطويل إلى الخلف: «لا يمكنك إحراجي بمثل هذه السهولة لورا. على أي حال سألحق بك من طاولة إلى أخرى إذا اضطررت، وهل تعرفين من سيستسلم أولاً؟».

مدت يدها إلى حقيبة يدها: «في هذه الحالة، سأدفع ثمن عشائي وأغادر المطعم».

أمسك معصمها بيده: «لن يحزن أحد لرحيلك بالتأكيد.. اتركي حقيبتك حيث هي. لن تذهبي إلى أي مكان، إلى أن تتوفر لي الفرصة..».

تقدم آرتشي إلى طاولتهما، وجذب كرسياً ثالثاً وقال: «مساء الخير جميعاً».

مدت لورا يدها، لتبعد أصابع تشارلز عن معصمها.. ثم التقطت الشوكة وتناولت لقمة كبيرة من السباغيتي.. فلتدع تشارلز يتعامل مع آرتشي.

حاول تشارلز: «آرتشي.. سأسر بالحديث معك فيما بعد. لا بل سأقلك إلى المنزل بنفسي.. إنك تحتاج إلى هذا، كما يبدو لي.. لكنني الآن أتحدث مع السيدة..».

قاطعته لورا برقة: «إنه يعني أننا نتشاجر آرتشي.. بإمكانك البقاء قدر ما تشاء.. في الواقع، سأقدم لك القهوة».

قال تشارلز بهدوء شديد: «لورا.. أنت تؤجلين ما هو محتم فقط.. عاجلاً أم آجلاً، ستسمعين كلامي.. ولو اضطررت إلى خطفك».

نظرت إليه نظرة ممحوقة: «أوه.. أنا واثقة أنك قادر على هذا».

نظر تشارلز في عيني لورا وأردف: «بما أن الاعتذار تأجل ثلاث ساعات.. فلا بأس ان يتأخر أكثر..».

قالت لورا بكبرياء: «لا أرغب في مناقشة الأمر».

-سوف تناقشينه.. سواء رغبت أم لا.

قال صوت مرتفع مليء بالمرح: «أنتما تتشاجران مجدداً.. تشوك، إنها فتاة لطيفة.. لا تتحامل عليها كثيراً».

مرر تشارلز أصابعه في شعره: «أنا أحاول أن أعتذر لها آني!».

ـ لما تبرر لي من يعتذر.. كيف كانت السباغيتي عزيزتي؟

ـ للديلة! الليلة، معي حافظة نقودي، وسأدفع الفاتورة.

ـ هذا عظيم! تشوك، عليك أن تظهر الأسف حين تعتذر.. تبدو وكأنك سوف تقطع عنقها.

قال ساخراً: «قد أقدم على هذا.. ثم، لا تنادني تشوك».

نظرت آني إليه بتفكير، ثم وجهت كلامها إلى آرنشي.

ـ آرنشي عد إلى طاولتك الآن. هذان الاثنان يتحدثان في أمور خاصة.

وقف آرنشي وهو يقول للعالم أجمع: «من النادر أن تكون طريق الحب الحقيقي سهلة».

وانتقل إلى طاولة أخرى.

قالت آني بلهجة مسرحية: «أوليست هذه الحقيقة؟».

ثم غمزت لورا! وذهبت.

نظر تشارلز إليها وقال: «أتساءل عما إذا كانت هناك فرصة لتضفي على المشهد الخصامي الهزلي درجة من الواقعية».

ملأت شوكتها بالسباغيتي وأكلتها:

ـ ما الذها!

ـ لورا.. لأجل الله..

رفعت نظرها إليه، فلمست في صوته توسلاً بيّنا لكنها لم تحس بالغضب..

وقالت بوضوح: «تشارلز.. لم أكن أصغي إلى حديثك عمداً. صادف أنني وصلت في تلك اللحظة.. وهذا كل شيء».

ثم قالت وهي تنظر إلى صحنها: «أزعجني انهماكك كثيراً.. لم يكن من داعٍ لأن تغضب كما غضبت».

أمسك يديها: «أولا أعرف هذا؟ لورا.. لا يمكن أن أجد عذراً مناسباً».

قالت برقة: «إذن.. لماذا فعلت هذا؟».

ـ انظري إلي.. هناك سبب لتصرفي.. وسبب وجيه جداً.. لكنني لا أستطيع أن أقوله لك. ليس بعد.. في يوم ما أرجو أن أستطيع.. لكن، حتى ذلك الوقت، أنا مضطر أن أطلب منك أن تثقي بي.

همست: «وهل تقوم بجرم غير قانوني؟».

بانت في عينيه نظرات دهشة صادقة.. وكرر: «غير قانوني؟».

ـ لا أستطيع أن أفهم سبب انزعاجك مني.

ـ لا لورا.. لا شيء غير قانوني.. ولا شيء غير أخلاقي. أؤكد لك هذا.

صدقته.. ولكن حيرتها ازدادت أضعافاً وأضعافاً.

ـ بدا لي وكأنك استحلت إنساناً آخر، إنساناً لم أره من قبل.

ـ آمل أن أشرح لك كل شيء قبل أن تعودي إلى بلدتك في نهاية الشهر. أعرف أن هذا يبدو كمؤامرة.. لكنني لا أملك طريقة أخرى.. اعلمي وحسب، أنه سبب هام وشخصي جداً. لا أستطيع إلا أن أطلب منك السماح.

أخفضت عينيها مجدداً.. لقد قال ثقي بي.. سامحيني.. الثقة والسماح كلمتان رائعتان، لكن حبذا لو تشعر بهما.

قال بحرارة وكأنه قرأ أفكارها: «أنا أطلب الكثير.. أليس كذلك؟ لا ألومك على غضبك مني لورا».

ـ لست غاضبة.. ربما حائرة، لكني لست غاضبة.

ـ أشكر الله على هذا.

وقف قليلاً، وطبع قبلة على رأسها.. فجأة، أخذ آرنشي يصفق من الزاوية.

التقطت لورا شوكتها مجدداً، وهي لا تعرف ماذا تفعل.. وقالت: «لقد درست كثيراً اليوم».

ـ هذا جيد.. على فكرة، لماذا جئت إلى كوخي؟.. لفنجان قهوة، أم لسبب محدد؟

تذكرت وقع الأقدام على الرمال، فابتسمت، ولان وجهها وهي تصف له ذلك الإحساس الغامض الذي خبرته فوق الشاطىء والحقل الأخضر.. وأنيت

ببطء: «ولم أشاهد الغزال.. لكن ربما لم أكن بحاجة إلى رؤيته».

ـ جئت إليّ لتخبريني عن الغزال؟

ـ أجل.. أردت أن أشاركك هذا الإحساس.

ـ وبدلاً من ذلك، كدت أقطع رأسك.. اسمعي، سأقلّ آرتشي إلى بيته.. هل يمكن أن أزورك لبضع دقائق بعد أن أوصله؟

وعرفت أن هذا تعبير ملطف.. لأنه، إذا جاء، فسيبقى لأكثر من دقائق.. وإذا بقي، فسيعانقها من دون شك.. وهذا ما لا تريد.. لا سيّما أن ذكرى غضبه لا تزال حية في تفكيرها.. قالت: «أفضل ألا تفعل.. أنا متعبة».

ـ هل أخفتك حتى ابتعدت عني لورا؟ لم يكن هذا قصدي.

ردت بصدق: «ربما فعلت هذا.. كفاني ارتباكاً اليوم واحد».

عض شفته إحباطاً: «لدي عمل هام لا أستطيع تأخيره في الغد.. أما في المساء، فأنا مرتبط مع فريق كرة السلة.. لكنني بعد غد سأكون حراً.. لماذا لا نبتعد من هنا لورا.. سنذهب إلى القسم الشمالي من الجزيرة، إلى الشاطىء. وربما نتناول العشاء في «هايلاند بارك»، هل تحبين أن نفعل هذا؟».

كانت ابتسامتها مضطربة: «أجل.. أحب هذا.. لكن..».

ـ جيد.. سأصطحبك باكراً.. أحضري معك فستان للعشاء.. هه؟ والآن، من الأفضل أن آخذ آرتشي إلى بيته.

أرجع كرسيه إلى الوراء وخرج برفقة آرتشي.

***

٦ ـ خطوات تحت المطر

خططت لورا أن تقضي يومها التالي بالتفكير في علاقتها مع تشارلز، تحللها، تصنفها، وبهذا تحدد المشاعر التي يثيرها فيها. لكنه عمل مستحيل. فسرعان ما اكتشفت أن تشارلز يتحدى التحليل ويرفض التصنيف. وهكذا، بقيت مشاعرها في حالة ارتباك مليئة بالأسى.. دفنت نفسها بين فصول الكيمياء، عساها تجد الترياق لمشاعرها المشتتة.. ثم اتصلت بالبيت، واكتشفت أن سوآن وكيث ودارين يعيشون في أحسن حال من دونها.

تمنت، أن تستيقظ في الصباح التالي على عاصفة ومطر وريح، علّها تلغي النزهة مع تشارلز. لكن، على العكس من هذا، حين نظرت من خلال الستائر، تفاجأت بصباح مشرق... إنه القدر.. لا يمكن لها أن تحارب القدر. وتركت نفسها أسيرة للترقب: «يوم كامل مع تشارلز!».

مال لون الكدمات على ساقيها إلى مزيج من الأصفر والقرمزي، والوردي. فقررت أن ترتدي بنطلوناً أبيض ضيقاً مع قميص وردي يربط عند الخصر. ما إن رآها تشارلز حتى أطلق صفرة مرتفعة.. رضيت لورا بها ثم قالت باحتشام: «لو ارتديت بنطلوناً قصيراً فستعتقل فوراً، وتضطر إلى الاعتذار مني».

نظر إلى البنطلون: «وبهذه الطريقة قد أعتقل بسبب نظرات غير لائقة».

ـ لكنه ليس ضيقاً جداً.

ـ إنه ضيق بما يكفي ليزيد من ضغط دمي.

وابتسم لها: «مرحباً لورا..».

التقطها بين ذراعيه بحيوية ودار بها في حلقة

- إنه يوم جميل . . وأنا ذاهب إلى أجمل ربوع كاب بريتون برفقة امرأة جميلة . . فماذا يمكن أن أتمنى أكثر من هذا؟

نسيت لورا كل شيء عن الغدة الدرقية . وانتقلت إليها بهجته ، وأصبحت الحياة نغمةً جميلة ستذكرها العمر كله . . تجاوزا سيدني ، وقطعا «براس دور» وسارا بمحاذاة الخط الساحلي الصخري لساعةٍ من الوقت ، فبلغا محمية «هايلاند ناشونال بارك» التي تمتد من الساحل حتى المستنقعات . انتشرت حولهما أشجار الصنوبر ، وبحيرات مليئة بسمك السلمون المرقط ، و«الموس» و«الدشق» .

كان تشارلز قد أحضر معه طعام النزهة . . فأكلا فوق الصخور عند أقدام شلالات ماري آن ، حيث أنعشهما الرذاذ البارد . . انطلقت اليعاسيب إلى أشعة الشمس ، وتنقلت بين أوراق السرخس التي تنحني برشاقة فوق البحيرة . . أما الماء فكانت باردة كالثلج .

شاركهما السحر عائلتان تضم كل منهما عدة أولاد صاخبين ، أخذوا يتسلقون الممر إلى قاعدة الشلالات . . رمى أحد الأولاد علبة في الماء ، وصاح مرحاً وهي تنقلب فوق الموج لكن تشارلز رفع حاجبه مستنكراً ، ثم التقط بقايا الطعام ، وهو يحرص ألا يترك أثراً لوجودهما .

- هل نذهب؟

- بكل سرور . . وأقسم أن أطفالي لن يقدموا على شيء كهذا!

ابتسم لها : «أنا واثق من هذا . . هل نتجه إلى الشاطىء؟» .

أمضيا بعد الظهر متسلقين بتكاسل تحت أشعة الشمس ، تارةً يسبحان وطوراً يتراشقان بالكرة . . وسرعان ما شكل الملح والرمل طبقة فوق بشرة لورا . . فهربت من برودة البحر إلى حرارة الرمل وهي خالية من الهموم كولد صغير . . بالرغم من ذلك ، ظلت تعي مع تشارلز أنها امرأة . استلقت إلى جانبه على الرمل ، ودلكت ظهره بسائل الوقاية من الشمس ، ثم ركضا يداً بيد إلى الأمواج . . وفي داخلها كانت تتمنى لو يختفي الجميع عن الشاطىء ، ليبقى لهما وحدهما ، يتمتعان معاً بلذة وحرية . . .

تناولا الطعام في «كيلني لودج» ، وهو عبارة عن منتجع ضخم يمتد في البحر . . كانت غرفة الطعام تطل على المحيط من الجانبين . . ارتشفت لورا عصير الأناناس وقالت : «تشارلز . . نحن لم نتكلم عنك حقاً . . عن والديك . . عن عائلتك ، عن خلفيتك العائلية . . أدركت أنني لا أعرف عنك سوى القليل» .

قال : «ما من شيء أتكلم عنه . . والدي رجل أعمال . . رئيس مجلس شركة تنقيب خاصة به . طموح ، متسلط ، ويحب السلطة . . حصلت على ماجستير في إدارة الأعمال . . وعملت لصالح والدي لثلاث سنوات ولكنني لم أستطع تحمل الأمر . . ثم عملت لحسابي الخاص لفترة ، وقمت بجولة حول العالم ، ويمكنك أن تعتبري هذا دلالة على استقلالي . . أسعى الآن إلى بناء علاقة جديدة مع والدي ، لكن الأمر صعب علينا . . » .

- هل لك أخوة وأخوات؟

- لا . . أنا ولد وحيد ، وهذا ما يزيد من الضغط عليّ .

- وأمك؟

- أمي تنفذ ما يقوله لها أبي ، وتظن أن عليّ أن أنفذ أوامره بدقة .

كان صوته متزمتاً ، لا يفضح شيئاً . .

أضافت : «هل كنت سعيداً في صغرك؟» .

- سعيداً بما فيه الكفاية ، كما أعتقد . كثيراً ما كنت أفعل ما يحلو لي .

- وكيف كان شكل منزلكم؟

أهو بيت مستقل بست غرف أم قصر ريفي بثلاثين غرفة؟ لكنها لم تجرؤ على السؤال .

تحرك بتململ في كرسيه ، بطريقة أصبحت تعرفها .

- أوه . . عادي . . أتعلمين . . يمكن أن أسألك السؤال عينه . . أخبرتني القليل عن أبناء أخيك . . ولكنك لم تخبريني شيئاً عن أبويك وطفولتك .

- عشت طفولة سعيدة ، وبطريقة ما ، عوملت كطفلة وحيدة . فجايمس أكبر مني بتسع عشرة سنة ، ولم يكن لوالديّ أولاد غيرنا . كان والدي يسميني بالفاكهة .

وابتسمت بحنين: «كان لوالدي عمله الخاص كذلك.. ولو على مستوى أقل تواضعاً من والدك.. كان ميكانيكياً يملك مرآباً. لذا صار له زبائن استمروا معه لسنوات.. تعلمت الكثير من والدي.. تعلمت أن أبذل ما في وسعي مهما كان نوع العمل الذي أقوم به..».

- وأمك؟

- إنها صارمة، ومع ذلك عادلة جداً. فيها رشاقة الإحساس وروح الرعاية.. لكنني بالتأكيد أميل إلى والدي أكثر.

- أين يعيشان؟

- في تورنتو.

لو كانت تراقب وجه تشارلز، لرأت الحذر فيه.. وأكملت: «عشت في منزل أهلي خلال فترة دراستي، لهذا أصبحت حياتي الاجتماعية محدودة.. ولوالديّ مقاييس قديمة الطراز، لكن كان علي أن أعيش تبعاً لهذه المقاييس لأنني كنت أعيش في كنفهما».

هزت كتفيها بطريقة فلسفية وأضافت: «وكان هذا أفضل.. أنا واثقة أنني درست بجهد أكبر لأنني كنت أعيش معهما».

- لكنك قلت إنك أحببت زميلك في تلك السنوات.

- لقد وقعت بحب تلميذ حفوق. أحببته بجنون ولكنني لم أقدم على أية علاقة معه لأن ذلك كان سيشعرني أنني أخدع والديّ اللذين كان من الممكن أن يصابا بالرعب.. أعرف هذا.

- وهل تشعرين بالذنب لأنك تخرجين معي.

- أهذا سؤال افتراضي؟

- بالطبع لا.. أنت خريجة كلية الكيمياء.. وتعرفين جيداً ما يحصل حين نقترب من بعضنا بعضاً. إن ما نشعر به هو امتداد منطقي لهذا الإحساس.

- منطقي؟

- أنا واثق أنها ليست كلمة جيدة. فما من منطق في شعوري نحوك.

سألته بصوت منخفض: «وكيف تشعر نحوي؟».

- وكأنني لن أعرف الراحة أبداً.

توقف قليلاً ثم أضاف: «الواقع أنك تعجبيتني كثيراً وأشعر أننا نصبح صديقين».

صمتت ببساطة وهي لا تعرف بما تجيب.

- صدقيني لورا.. أعرف عقدة الذنب حين يسبغها الوالدين على أولادهما.

منحها ابتسامة لامست قلبها: «لا أدري ماذا أفعل إن كانت علاقتنا ستؤذيك بدلاً من أن تفيدك».

أجابته بصدق: «أنا لا أعرفك جيداً.. لقد التقينا للتو.. أعرف أن الكيمياء موجودة بيننا، وسأكون حمقاء إن لم أعترف بهذا.. لكن هذا لم يحدث لي من قبل. وأنا.. أنا.. لا أستطيع..».

- ولم يحدث لي كذلك.

- وخطيبتك؟

- كان الانضباط الاقتصادي هو العامل الأساسي في تلك العلاقة، لا الكيمياء.. ماذا عن خطيبك؟

- لم نكن خطيبين يوماً.. وجمعتنا الوحدة لا الكيمياء.

قال تشارلز بلطف: «إذن، دعينا نهدئ الأمور قليلاً لورا».

ومد يده على الطاولة: «اتفقنا؟».

صافحته، فسرى تيارٌ قويّ من يده إلى يدها حتى شعرت بنقاهة اتفاقهما.. لكنها قالت بوقار: «اتفقنا».

لماذا تشعر إذن أنهما لم يتناقشا بشأن المسائل الحقيقية؟ لا بل لم يذكراها مطلقاً!

سألته: «أنا لا أعرف حتى كم عمرك؟».

- واحد وثلاثون تقريباً.

- ومتى عيد مولدك؟ تشارلز.. يجب أن أنتزع منك المعلومات انتزاعاً!

- بعد أسبوع من يوم الأربعاء القادم.

- حقاً؟ أدعوك للعشاء في كوخي ذلك اليوم.

تردد: «لماذا لا نخرج للعشاء بدلاً من هذا؟».

ـ يا إلهي، لا . . أنا أدعوك في عيد مولدك . . وأنت تصحبني للعشاء في عيد مولدي . . في بلدتي، أقيم دائماً حفلة لكيث ولسوآن . . أما دارين فهو ليس اجتماعياً بما يكفي، لذا أطهو له الطعام الذي يفضله . . ما هي أكلتك المفضلة؟

رد بصوت فيه رنة غريبة: «أحب السمك . . كل أنواع السمك».

ـ إذن، هذا ما ستحصل عليه.

ـ وهل أقام والداك حفلات خاصة في أعياد الميلاد؟

اكفهر وجهها: «بكل تأكيد . . لكنني لم أرهما كثيراً في السنوات الأربع الماضية . . لم أكن أملك المال لأسافر إليهما وأعود مجدداً . . ولا الوقت أيضاً».

ـ وهل يشكّل المال، مشكلة بالنسبة لك لورا؟

ـ أجل . . بكل تأكيد . . كان لجايمس تاريخ في مشاكل القلب، لذا لم يكن التأمين كافياً . . ولحسن الحظ كان يملك المنزل، وقام ببعض الاستثمارات العقارية . . وإلا لكنا فعلاً في مشكلة.

ولهذا لم تسرف كثيراً حين ربحت اليانصيب . . فهي لم تستطع أن تكسر عادة اتبعتها منذ سنوات.

ـ لكن سوآن ستذهب إلى الجامعة، وكيث يريد دراسة الموسيقى، أما أنت فتريدين دراسة الطب . . فكيف ستتدبرين أمرك؟

قالت بابتسامة جافة، وهي تكره أن تكذب عليه: «ألم تسمع بالقروض الدراسية؟».

لم تكن مستعدة بعد لتكشف عن سر ثرائها . . أرادت أن يحبها لنفسها، لا لمالها . . لكن، هل يعني هذا أنها تريد أن يقع تشارلز في حبها؟

لكنه لم يقع بعد . . هذا مؤكد . الإعجاب، والصداقة، مشاعر لا يمكن أن تنوب عن الحب . . وماذا عن نفسها؟ ماذا تشعر نحوه؟ ردت على نفسها: إنه انجذاب قوي . . ليس إلا . .

لم يتشعب الحديث مرة أخرى إلى مشاعر الحب . تحدثا عن الكتب التي قرآها والأفلام التي شاهداها، ووصف تشارلز بعضاً من رحلاته إلى الشرق الأقصى . . وضحكا كثيراً . . حين خرجا، بقي تشارلز بعيداً عنها . اتجها إلى السيارة تحت

ضوء القمر، والهواء مثقل برائحة الدردار، والبحر يتلألأ بلون فضي.

نامت لورا في طريقهما إلى المنزل . . ثم أوصلها تشارلز إلى باب كوخها وهو يقول بصدق: «شكراً لورا . . لقد أمضيت يوماً رائعاً . . أراك غداً».

وتركها . . فدخلت المنزل، ثم ذهبت إلى الفراش وهي تحسّ أنها فقدت شيئاً ما.

استيقظت في الصباح التالي، وقد صممت أن تفكر بالمال . . نظفت الصحون . . ثم أخذت ورقة كبيرة، وقلم له ممحاة، وجلست إلى الطاولة قرب النافذة . في أعلى الورقة، كتبت: مليون دولار . . ثم فرّعت منها عدة خطوط . . أخذت تنظر إلى الورقة لوقت طويل.

لن تتزوج بارت . . لذا ستشتري منزلاً قرب الجامعة وتعيش فيه . . . قيل لها إن الأملاك العقارية هي استثمار مالي جيد . . في أسفل أحد الخطوط المتفرعة كتبت: «شراء منزل أو شقة في تورنتو» . . ثم خطت بتردد مئة وخمسون ألف دولار، تبع هذا علامة استفهام كبيرة.

احتلت دراسة الطب خطاً ثانياً، وتعليم سوآن وكيث خطاً ثالثاً . . وأضافت كمية مماثلة من المال لدارين . . إذا أراد أن يشتري سيارة فليفعل . . ثم أمضت بضع دقائق أخرى تفكر بلا تركيز . . يمكنها أن تستثمر مالاً للتقاعد . يجب أن تدهن برج الكنيسة . . ورسمت صورة لكنيسة ببرج، وزينتها بنوافذ وردية وناقوس كبير.

تحت خط آخر، كتبت بابتهاج: رحلة لأمي وأبي . . لطالما أرادت أمها أن تسافر جنوباً لقضاء الشتاء.

كان الهواء عابقاً برائحة الشوكولا والبسكويت الطازج، حين قرع تشارلز الباب ونادى: «هل لي أن أدخل؟».

انضم إليها في المطبخ، ونظر إلى البسكويت المكوّم ثم قال: «تبدو لذيذة».

ضحكت: «لقد لحقت الرائحة طوال الطريق من كوخك. تفضّل».

قضم قضمة واحدة، وعلق قائلاً: «أنت مفيدة في المنزل».

ـ لا أريد أن أسمع هذا التعصب الذكوري . . فمكان المرأة ليس بالضرورة في

المطبخ.

سأل ببراءة: «أتعنين أن مكانها في غرفة أخرى؟».

ـ بسبب هذا الكلام.. أعدّ القهوة بنفسك.

وضع غلاّية الماء على النار.

ـ يجب أن أذهب إلى البلدة، وتساءلت إن كنت تحتاجين إلى شيء.

ـ لو أحضرت لي الحليب، لوفرت عليّ رحلة إلى مخزن البيع.. إنه يوم سيء.. أليس كذلك؟

نظر من النافذة: «سيستمر الطقس هكذا طوال اليوم.. لحسن الحظ أننا ذهبنا إلى الشمال بالأمس».

أخرجت لورا كوباً من الخزانة، ووضعت فيه بناً وثلاث ملاعق سكر.. سمعته يقول والمرح في صوته: «لا بد أنك اشتريت ورقة يانصيب.. من الصعب أن أتصور كيف تصرفين مالاً لم تكسبيه بعد».

كادت توقع الكوب من يدها. التفتت، فرأت تشارلز يتطلع إلى الورقة التي كتبت عليها مليون دولار في القمة.. أوه.. لا.. ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم قالت: «هذا يعني أنك لا تعرفني بعد. ألا نحلم جميعاً بمليون دولار؟».

ـ تبدين لي عملية لا حالة.. لورا.. ماذا يمكن أن تفعلي بمليون دولار؟

ـ أدفع مصاريف دراسة الطب، أشتري منزلاً، وأرسل والديّ في رحلة حول العالم.

ـ يمكنك أن تستثمري المال من دون دراسة الطب.

ـ أنت تعرفني أكثر من هذا تشارلز.

ـ هذا صحيح.. هل لي ببسكوتة أخرى أو اثنتين؟

ـ أنت جشع مثل كيث.. خذ ما تريد.

أخرجت آخر صينية من الفرن: «أحب أن أخبز في يوم ممطر.. أنا أخبز كثيراً في الشتاء».

وهكذا، نسيا موضوع المليون دولار.. ما إن خرج، حتى طوت الورقة ودستها في درج، وأخذت كتاب الكيمياء.

بعد ساعتين، استراحت لورا لتناول الغداء، ثم عادت إلى درسها..

في الخامسة والنصف، سمعت إطارات تسحق الحصى. لقد جاء تشارلز بالحليب.. دخل، ليقول معلقاً: «هل كنت تدرسين طوال اليوم؟».

ـ أجل.. ولقد أنجزت الكثير.

ـ إذن، حان وقت الراحة.. هل تحبين السير تحت المطر؟

ابتسمت: «حسن جداً.. أجل، لكن...».

ـ جيد.. ارتدي المعطف الواقي من المطر وانتعلي الحذاء العالي المرتفع الساقين.

أمالت رأسها جانباً.. فأكمل: «أرجوك لورا».

أمسك بكتفيها، وقال بصدق: «حين تنظرين إليّ هكذا، تذهب كل نواياي الطيبة، أدراج الرياح».

وضمها إليه طويلاً وبشدة.

كيف يمكن للعالم أن يتوقف لأن رجلاً يعانقها؟ قالت بضعف: «نحن ذاهبان لنتمشى».

ـ في الخارج.

ـ وتحت المطر.

ـ أبدأت تحسين بالبرد؟

تراجع عنها.. فقالت: «سأحضر ملابس المطر».

وركضت إلى غرفتها، حيث تستطيع أن تخفي ارتعاش يديها.

انطلق الاثنان إلى الشاطىء.. وبدلاً من أن ترى آثار الغزال، أبصرت ملايين القطرات من المطر.. واصطبغت السماء والبحر بلون رمادي.. ولم يعد يفصل بينهما إلا الضباب.

تمتعت لورا ببرودة المطر على وجهها، كان يسيران بسرعة ويتحدثان عن أشياء متفرقة.. استنشقت الهواء الرطب بعمق وقالت فجأة: «هذه فكرة رائعة.. كنت أحس أنني سجينة من دون أن أدري».

نظر إليها.. بشرتها رطبة، وخصل شعرها على جبينها مبللة.. وجهها

بريء، وخال من الماكياج، ابتسامتها ودودة، سعيدة، من دون رياء.. وقال:
«لورا.. لا تعرفين مقدار سروري لأنني عرفتك.. أنت مختلفة عن أيّ امرأة قابلتها من قبل».

وقفت مسمّرة، والمطر يقطر من سترتها الواقية.. وقالت بذهول: «حقاً؟».

ـ أنت صادقة وصريحة.. أنت طموحة وشجاعة. وتملكين بكل تأكيد روح المسؤولية.

ـ أبدو وكأنني قديسة.

أضفت ابتسامته اللين على قسمات وجهه الحادّة.

ـ وأضيف، أنك سريعة الغضب وعنيدة.. وبالطبع.. جميلة بشكل يوقف القلب..

احتجت: «تشارلز.. أنا إنسانة عادية.. حقاً. أبي ميكانيكي، وأخي كان مدير مصرف في بلدة صغيرة.. وأنا..».

ـ لا دخل لكل هذا.. أنت تعرفين.. أنا أقول إنني مسرور بمقابلتك.. وأنا مسرور فعلاً.. لكنني أشعر بأن الوقت يمر بسرعة.. لقد مر على وجودك هنا أسبوع وسرعان ما يمر الشهر قبل أن نشعر به.

سمعت خفقات قلبها المتسارعة. إنما لا علاقة لذلك بالسرعة التي كانا يسيران بها.. فقالت وهي تحاول أن تمازحه: «هذه إجازتي التي تبددها بكل شهامة».

أمسكها من كتفيها بقوة حتى شعرت بأثر أصابعه على بشرتها.

ـ أنا جاد لورا.. سأبقى هنا حتى نهاية الصيف. ألا تستطيعين البقاء لمدة أطول؟

ـ لا.. بالطبع لا.. يجب ألا أبقى طوال هذه المدة.

ـ إذن.. هل يمكن أن آتي لزيارتك في شهر آب؟

حاولت أن تنسحب من الالتزام: «إنها مسافة بعيدة.. ست أو سبع ساعات..».

ـ يمكن أن أذهب إلى هاليفاكس ونقابلني هناك.

تهلل وجهها ارتياحاً: «هذه فكرة أفضل بكثير! فأنا أحب المدينة!».

لم يرد ابتسامتها: «أتعنين أنك لا تريدين أن أزور منزلك؟».

نظرت إليه بدهشة.. هذا ما تريده بالضبط. لو ذهب إلى غرانتهام لعرف أنها امرأة ثرية، ولتغير كل شيء.. ومثل بارت، قد يطلب يدها.. فيحطم قلبها.

قالت تتلعثم: «لا.. لا.. لكنك لا تعرف صعوبة الحياة مع زمرة من المراهقين.. موسيقى صاخبة.. وطعام في كل ساعة ومن دون انتظام».

قال بتحدٍ متعمد: «لا بأس بهذا.. أود أن ألتقي بتلاثتهم، لورا».

ـ يمكن أن تلتقي بهم في هاليفاكس..

هزها قليلاً: «منذ لحظات، قلت إنك صادقة.. لكنك لست صادقة معي الآن.. ماذا تخفين عني لورا؟ لم لا تريدين أن أذهب إلى البلدة التي تعيشين فيها؟.. لا شك أنك تدركين أنك لم تذكري اسمها بعد».

حدقت في عينيه الرماديتين كالفولاذ، وهتفت: «تشارلز.. لقد ابتللت كثيراً وكرهت هذا الحديث.. هل لنا أن نسير على الأقل؟».

ـ لن نتحرك إلى أي مكان قبل أن ترديّ على سؤالي.. ما الذي تخفينه بعد عن عائلتك؟ هل تعيشين مع صديقك المحامي؟ ما الذي تخفينه عني؟

ـ أعيش مع بارت؟.. حباً بالله، لأجل السماء، أنت لا تعرف البلدات الصغيرة جيداً.. ولا تعرف أمه.

ـ إذن ما الأمر؟

هزها مرة أخرى وأضاف: «هل يزعجك شيءٌ فيّ حتى ترفضين أن أزورك في منزلك».

ردت بضيق: «بالتأكيد لا! لا تكن سخيفاً».

ـ ألك عمة مجنونة حبيسة في العلية؟ أو هياكل عظمية تتساقط من كل الخزائن؟ هيا افصحي بصراحة.. سنقف هنا تحت المطر إلى أن ترديّ.

أرخت جسمها تحت قبضته: «أوه.. سنبقى هنا؟.. إذن، من الأفضل أن تستعد لأن تتبلل كثيراً».

قال لها من بين أسنان مشدودة: «ألم يهددك أحد من قبل بدق عنقك؟».

ـ لا أعرف تشارلز . . لكنني لن أقف تحت المطر إلى الأبد!

كانت ابتسامته كريهة : «اتفقنا من قبل أنني أضخم منك جثة، وقد لا تتاح لك فرصة الفوز».

ـ باستطاعتك أن تشعلني غضباً أكثر من أي إنسان سبق أن عرفته.

هنا، لمعت عيناها وتورد خداها.

ـ عظيم . . على الأقل لست لا مبالية بي.

ـ أوه . . لم أكن هكذا يوماً.

ـ أنا أبادلك مشاعرك لورا . . إذا كنت فعلاً تهتمين بي، فهل تخبرينني عن اسم بلدتك؟

تنهدت وقد أحست بالهزيمة : «أجل . . ربما أخبرك . . أصغ إلي تشارلز . . حين سمعتك بالصدفة على الهاتف، قلت إنك لن تستطيع تفسير سبب غضبك مني. وطلبت مني أن أثق بك . . حسن جداً . . سأفعل الشيء ذاته . . سأكون سعيدة عندما أقابلك في هالبفاكس خلال شهر آب . . أما ما تبقى، فأطلب منك أن تثق بي . . أنا لا أخفي عنك شيئاً أخجل منه، ولا أعاني من متاعب مع القانون . . ولم أرتكب سوءاً . . أؤكد لك هذا . . وهذا كل ما أستطيع قوله».

رد متجهماً : «ذكية جداً . . لن أستطيع الجدال . . ردك متقن، لورا».

صرخت : «لا أحاول أن أتذاكى! أطلب فقط أن تمنحني الثقة عينها التي أعطيتك إياها . . فهل هذا صعب جداً؟».

ترك كتفيها . . وأخذ يركل الرمل بغضب. فأضافت والضحك يدفىء صوتها : «تبدو كولد صغير، انتزعت منه لعبته المفضلة . . لا بد أنك واعدت الكثير من النساء . . فأنت لست بلا جاذبية . . أعرف أنه كان لك خطية. لا أصدق، أن امرأة، لم تطلب منك ما أطلبه الآن . . أنا أطلب منك أن تثق بي . . هذا كل شيء».

استدار ليواجهها : «لقد طالبني النساء بالكثير . . بمن فيهن خطيبتي . . لكن طلبك فريد من نوعه . . قلت إنك مختلفة، وأنت فعلاً مختلفة».

حدقت لورا فيه بصمت وبارتياك تام . . ثم قالت أخيراً : «المطر يخترق ثيابي،

وصولاً إلى عنقي . . وقدماي باردتان. من الأفضل أن نعود».

ـ لكننا لم نحل شيئاً بعد.

تذكرت كلماته فأجابته بمثلها : «إياك أن تدفع النهر . . فسيتدفق وحده».

قطب قسماته بإحباط.

ـ لطالما اعتقدت أنني رجل صبور . . لكنك أثبت لي العكس . . أنا مخطىء إلى أقصى حد.

أشاح بوجهه عنها. وأخذا يسيران معاً، جنباً إلى جنب، من دون أن يتلامسا. كانا يجرجران أقدامهما على الشاطىء، فوق العشب المبلل. وفجأة، تكلما في وقت واحد : «تشارلز . . ».

ـ لورا . .

قالت : «تكلم أنت أولاً».

ـ لم لا تأتين إلى كوخي . . سأوقد المدفئة، ونعدّ معاً عشاء خفيفاً.

ردت : «أودّ هذا».

ـ ماذا كنت ستقولين؟

ـ لم أعد بحاجة إلى الكلام.

وقف قرب شجرة صنوبر.

ـ هيا لورا . . قولي.

ـ كنت سأسألك هل أنت راضٍ عن الطريقة التي حللنا فيها الأمور . . لكن، بما أنك دعوتني للعشاء، أفترض أنك راضٍ.

ـ لست راضياً . . ليس تماماً، لكن لا أملك خياراً آخر.

ثم ضمها إليه بثيابها المبتلة، فتشابكت سترتاهما الواقية من المطر، وانسابت قطرات الماء على عنقها . . لكن لم يبدُ لها هذا مهماً . . فقد حرق عناقه كل الغضب بينهما، ولم يترك سوى الصدق اليائس الأصيل. ابتسمت له ابتسامة مضطربة مشرقة، وأمسكت بيده : «دعنا نركض . . أكاد أتجمد!».

كانا يضحكان، وقد قطعت أنفاسهما حتى بلغا الفسحة أمام الكوخ. كان الممر ضيقاً، فسارت لورا أمامه . . فجأة، تسمرت مكانها، فاصطدم تشارلز

بها . . والتفت ذراعاه حولها .

ـ ماذا . .

ثم رأى ما رأت .

كان هناك سيارة متوقفة بالقرب من سيارتها . . سيارة سوداء غالية الثمن . . وكان السائق يخرج منها ليقف إلى جانبها ، ويفتح مظلة سوداء . كان يرتدي بنطلوناً رمادياً وكنزة كشمير فوق قميص مفتوح الياقة . . ويبدو متكلفاً مثله مثل سيارته .

كما بدا غاضباً جداً .

هتفت لورا : «بارت!» .

***

٧ ـ لص عند منتصف الليل

ترك تشارلز لورا من دون تردد . . فاستقامت وتقدمت خطوتين نحو السيارة السوداء :

ـ بارت . . ماذا تفعل هنا بحق الله؟

ثم تغير صوتها ، وجف الدم في وجهها .

ـ هل من خطب؟ سوآن . . الصبيان؟

قال بارت ببرود : «إنهم جميعاً بخير . . وكالعادة تسألين عنهم أولاً . . أليس كذلك؟» .

ـ لقد أخفتني . . ظننت أنك جئت لأن حادثاً ما وقع .

ـ ألم يخطر ببالك أن خطيبك يرغب في أن يراك؟

ـ أنت لست خطيبي . . قلت لك إنني أتيت إلى هنا لأفكر بالأمور .

ـ وهل هذا . . السيد المهذب . . يساعدك على التفكير؟

صرخت لورا به : «لا تتكلم بتكبر هكذا . . تشارلز يقطن في الكوخ المجاور . ولقد خرجنا معاً في نزهة . . أسندني بذراعيه لأنه لو لم يفعل ، لوقعت أرضاً . . لا سيّما أنني دهشت لرؤيتك» .

قال بارت متوتراً : «هل يمكن أن تتابع النقاش في المنزل؟» .

أحست بتردد شديد : «لقد دعاني تشارلز للعشاء في كوخه» .

ـ أنا واثق أن تشارلز سيتفهم أنني قدت مسافة طويلة حتى أراك .

قال تشارلز ببرود : «فلنؤجل الأمر إلى مرة أخرى لورا» .

نظرت إليه من فوق كتفها.. بدا لها واثقاً من نفسه.. لن تبدو هي على هذا
نحو، لو ظهرت خطيبته. إنه لا يشعر بالغيرة.. حبذا لو ينفث الآن ناراً، ويأمر
رت أن يغرب عن وجهه.
قالت متمردة: «حتى الغد فقط».
ـ حتى الغد إذن.
ربت على خدها، كما يربت الأخ على وجنة أخته. ثم حيّا الرجل الآخر تحية
ساخرة، واختفى بين الأشجار. راقبته يبتعد، وهي تشعر بالهجران.
حين فتحت الباب، لم تجد بارت خلفها.. بل كان يخرج حقيبة صغيرة من
صندوق سيارته.
ـ ما هذه؟
قال بسخرية ثقيلة: «إنها حقيبة ملابس. عادةً، نضع فيها الملابس».
ـ ولماذا تدخلها إلى هنا؟
ـ لورا.. هل تتصورين أنني سأعود أدراجي إلى غرانتهام الليلة؟
ـ بارت.. لن تبقى هنا.
ـ وأين تقترحين أن أنام؟
ـ هناك عدد كبير من الفنادق بين هنا وسيدني.
طوى المظلة بحركات محددة، وأوقفها على عتبة الأقدام.. إنه يشبه توم
سيلك فعلاً. سوآن على صواب.
قال برباطة جأش مثيرة للأعصاب: «لقد قدت سيارتي لعدة مئات من
الأميال، تحت المطر المنهمر، حتى أراك.. ليس من الضروري طبعاً أن أقود
خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلاً آخرين، حتى أجد مكاناً للنوم.. في المنزل غرفنا
نوم، أليس كذلك؟».
أطاح بكل اعتراضاتها في ثانية.. فأجابته بتوتر:
ـ لن تنام هنا ولو كان في الكوخ خمسون غرفة نوم.
قال: «حبيبتي لورا.. أريد أن أتزوجك.. اشتقت إليك كثيراً في الأيام
الأخيرة.. كان يجب أن أتصل بك أو أكتب إليك.. لكنني جئت مندفعاً..

أرجوك.. لا تغضبي مني».
قالت بشيء من الصدق: «أنا لست غاضبة لأنك أتيت».
وأنهت بصدق كامل: «لكنني غاضبة لأنك اقترحت أن تبقى هنا».
قال ملاطفاً: «فلنتكلم عن هذا في ما بعد.. لم لا تخلعين عنك هذه السترة
المبللة، وهذه القبعة الغريبة، كي أستطيع أن أعانقك؟».
لكن سترتها المبللة وقبعتها الغريبة لم تقفا عائقاً أمام عناق تشارلز.. اكتشفت
أنها لا ترغب في معانقة بارت. خلعت السترة ببطء شديد، وعلقتها على إحدى
تعليقات الباب، ثم فكت العقدة من تحت ذقنها.. وقالت بصراحة والقبعة في
يدها: «بارت.. ما من طريقة سهلة لأقول هذا.. لن أستطيع الزواج بك..
عرفت هذا الآن».
ـ حبيبتي.. أنا أتفهمك. انقلبت حياتك كلها رأساً على عقب بعد أن ربحت
ذلك المال.. أستطيع أن أفهم حاجتك إلى الابتعاد.. لم أتفهمك في ذلك الوقت،
ربما، لأنني لم أكن متعاطفاً جداً.. أنا آسف لهذا.. آمل ألاّ تربطي أبداً بين
زواجنا وبين المال.. حين كنت في جولتي في مونتريال.. أدركت كم تشغلين
بالي، وكم أنا مُهتم بك.. عرفت أنني يجب أن أتزوجك.. حين عدت، كنت قد
ربحت اليانصيب.
أضفت بسمته لمسة من السخرية على وجهه: «هذه إحدى المصادفات التي
تناسب الخيال أكثر من الواقع».
كانت جامدة جداً، وعيناها السوداوان غامضتان تماماً.. هل هو صادق؟ أم
ماكر جداً..
قالت: «ليست هذه نقطة الخلاف.. اكتشفت أنني لا أحبك.. لذا لا
أستطيع الزواج بك».
اختفى في لحظة سحره الخلاّب، وطغى عليه إحساس بالقوة.. ثم استعاد
هدوءه:
ـ أنت مخطئة، وتعرفين هذا لورا. أنت تحبينني منذ ثلاث سنوات..
اسمعي.. أنا بحاجة إلى فنجان قهوة.. لماذا لا نتابع هذا الحديث في ما بعد؟

ـ ظننت أنني أحبك لأنني كنت أشعر بالوحدة، وأفتقد تورنتو، ولم أجد أحداً غيرك. بارت، أنا آسفة.. لقد تصرفت بغباء حين أوهمتك أنني سأتزوجك.

قال بمرونة: «أريد أن أشرب شيئاً لورا.. هل لديك عصير طماطم؟».

ـ أجل.. في البراد.. أعددت لحماً بالفلفل منذ أيام، وسأكون مسرورة أن أشاركك فيه. لكن أرجو أن تتصل بنزل وتحجز غرفة لتنام فيها الليلة.

ـ هناك الكثير منها.. سأتصل بعد أن تأكل.

فضلت لورا لو يقوم بهذا الآن، لكنها كانت تعرف أنه قد يصبح صعب المراس.. فشغلت نفسها بإعداد الأرز والسلطة وفي هذا الوقت كان بارت يصب عصير الطماطم.. بعدما رشفت رشفة، قالت له:

ـ لقد أضفت إليه الكثير من التوابل الحارة.

ـ وهل هذا كثير؟.. آسف.. اشربه لأسكب لك كوباً آخر.

بدأت تشرب الكوب الثاني وهي تقطع الفاكهة أمامها في وعاء.. والغريب ان السكين انزلقت من يدها أكثر من مرة.. وبدا لها تقطيع البرتقال مهمة معقدة أكثر من العادة.. نظرت إلى كوبها الثاني بريبة.

ـ هل وضعت فيه شيئاً؟

ـ لورا.. لم أزد عليه سوى التوابل الحارة.

بقليل من الحظ، تمكنت من وضع الوجبة على الطاولة، لأنها شعرت برأسها يدور.. كان البخار يتصاعد من اللحم بالفلفل، فيما يزينه الأرز الطري، والسلطة شهية.. تحدث عن فيلم سينمائي شاهده في هاليفاكس، ثم عدد المزايا العديدة للعيش في المدينة.. أصغت لورا إليه بأدب، وهي تبذل جهداً مضاعفاً للتركيز. لكن، حين تحدث عن منزل معروض للبيع في محيط كلية الطب، عادت إلى وعيها، وقالت: «لو كان لي الخيار لذهبت إلى جامعة تورنتو».

ـ أستطيع أن أنتقل إلى هاليفاكس لورا.. لكن ليس إلى تورنتو.. لن تستطيع أمي تحمّل هذا.

اندفعت لتخبره عن رأيها بأمه، لكنها كبتت انفعالها وقالت:

ـ أنت لم تفهم هذه النقطة.. مع أنني واثقة أنني قلت هذا مراراً وتكراراً من قبل. لن أستطيع الزواج بك بارت.. لذا سأقدم طلباً إلى كلية الطب في تورنتو.. إنها بلدتي.

تناول قصعة كبيرة من سلطة الفاكهة.

ـ كوني صريحة معي لورا.. ألم أعد مناسباً لك منذ ربحت كل ذلك المال؟

لزمت الصمت.. فتابع: «كنت تحبينني لثلاث سنوات.. ثم ربحت مليون دولار.. فجأة توقفت عن حبي. استنتاجي الوحيد هو أن محامياً من بلدة صغيرة لم يعد كافياً لك.. صرت تنظرين إلى الأعلى.. وتتجهين إلى مدينة أكبر، وإلى لعبة أكبر».

ـ هذا غير...

ـ أنا أعمل جاهداً في مهنتي، وأكسب معاشاً محترماً.. لكنني لن أكسب مبلغاً يوازي المليون دولار...

صرخت: «توقف! ليس الأمر هكذا! لو كنت أحبك حقاً، لما اهتممت لو كان معك خمسة ستات أو خمسة ملايين... لكنني لا أحبك، بارت.. هذه هي المسألة.. وليس المال».

ـ لقد غيرك المال لورا.

صاحت من أعماق قلبها: «لا أريده أن يغيرني!».

ـ لكنني أخشى أنه غيرك.

ـ أنت هنا في الأساس، بسبب المال أليس كذلك؟ أوه أنا واثقة أنني أعجبك. لكن، من دون المال.. لن أكون جذابة بما يكفي.

ضرب قبضته على الطاولة، فاهتزت الصحون، وقفزت لورا مجفلة.. فقال: «حسن جداً.. أنا لست محصناً ضد إغراء المال. لذا، فمليون دولار تشكّل فارقاً كبيراً.. سأكون غبياً لو قلت غير هذا».

أهي غبية بدورها لأنها ترغب أن يحبها لنفسها؟ لكنها تركت السؤال من غير جواب... وردت:

ـ ربما أنت واقعي جداً، وأنا مثالية جداً. لكن هذه هي المسألة بارت..

ولآخر مرة، أقول لك، لا أستطيع الزواج بك.. أرجوك، تقبل هذا.. لأنها الحقيقة.

ـ لن أتقبل أي شيء.

ردت بكل ما تستطيع من برود: «لا تملك خياراً.. لم يعد بيننا ما يقال.. سأتصل لأحجز لك غرفة. من الأفضل أن تذهب. أنا آسفة لسفرك الطويل، من أجل لا شيء.. لكنني لم أطلب منك المجيء».

وقف.. ثم قال بصوت ماكر:

ـ أوه.. لا.. لن أستطيع المغادرة الآن لورا.. أنا متعب، والطريق بعيدة. ستكونين مسؤولة لو تعرّضت لحادث وقد أقتل أحداً.. فهل يتحمل ضميرك هذا؟

نظرت إليه وصدغاها يضجان:

ـ لقد دسست شبثاً في العصير.

ـ بل أشياء مضاعفة.. ولهذا أضفت كثيراً من التوابل، كي لا تميزي طعمها... ظننت أن هذا سيلين عنادك.

فقدت ابتسامته سحرها: «لكنني كنت مخطئاً وأنت لن تتخلصي مني، هذه الليلة».

تمسكت بطرف الطاولة: «تعرف أنني لن أرضيك بشيء. فماذا تخطط؟ اعتداء».

بدا أنها جرحت كرامته: «حقاً لورا.. لن أفعل شيئاً.. لكنني واثق أن جارك، السيد المهذب، سيعرف أنني أمضيت الليل معك..».

وهي واثقة من هذا كذلك.

ـ تعلمت من دارين عدداً لا يحصى من الكلمات حتى أصف شخصاً مثلك.. لو لم يكن لي أم متزمتة، لاستخدمتها.. سوف أحضر لك السرير في الغرفة الإضافية، ثم أغسل الصحون، وأذهب إلى النوم، في غرفتي.. وبإمكانك الرحيل في الصباح.

لوح يديه بحركة مسرحية: «هيا.. افعلي ما تشائين».

أخذت ترتجف بغضب مكبوت. كانت تطوي اللحاف عند أسفل السرير حين وقف بارت بالباب. لكنها تجاهلت قلقها المفاجىء وقالت: «هناك بطانية أخرى في الخزانة والمناشف على الكرسي.. ليلة سعيدة».

وتحركت نحو الباب بحزم.

لكنه ظلّ يتكىء على الباب بتكاسل، وعيناه غير مركزتين.. وقال: «قبليني قبلة المساء لورا.. لأجل الأيام الخوالي».

ردت بحدة: «لا.. شكراً لك.. أتسمح أن تتحرك لأخرج؟».

تحرك بسرعة أكبر مما توقعت، وأمسك كتفها ليشدها إليه بسرعة.. تخلصت منه بغضب، لكنه بدا مسروراً من نفسه.

استدارت متجهة إلى غرفتها، وصفقت الباب خلفها.. فلم يكن في القفل مفتاح.. لم تجد أمامها إلاّ قطعة واحدة من الأثاث، فأمسكت كرسياً ذا قوائم هزيلة وثبتته تحت مقبض الباب، وهي تتمنى لو أن القوائم أكثر قوة.. ثم جلست بقوة فوق السرير.

كان رأسها يؤلمها.. وفمها جاف.. ومن بين كل الأحاسيس التي اجتاحتها، أدركت أنها خائفة. فجأة، تذكرت عزلة الكوخ، والمطر المنهمر على السقف، والعتمة خارج النوافذ.. حين سمعته يتحرك في غرفة الجلوس، تصلبت.. اقتربت خطواته من بابها، ثم توقفت.. راقبت استدارة مقبض الباب برعب وذهول.. ثم استراحت.

ـ لورا.. لست مضطرة إلى إقفال الباب في وجهي.

كانت قوائم الكرسي ضعيفة جداً، يمكن لدفعة قوية على الباب أن تكسرها بسهولة.. لماذا لم تتعلم دروساً في الدفاع عن النفس؟

ـ أحتاج أن أتحدث إليك لورا.. لم نستقر على شيء.. لا يمكن أن نترك الأمور كما هي.

واستدارت القبضة مجدداً، بقسوة أكثر:

ـ لورا، هل أنت هنا؟

ـ أجل.. أنا هنا.. أرجوك بارت ابتعد.. ليس عندي ما أقوله لك.

ـ على الأقل، افتحي الباب لأراك.

قالت بصوت مرتفع: «أريد أن أنام.. وأنصحك بأن تحذو حذوي..».

أخذت تتململ على الفراش ليسمع صوت الرفاصات وأكملت: «ليلة سعيدة».

تحركت قدماه خارج الباب الذي تسرب منه شعاع نور.. ثم تراجعت خطواته، وساد الصمت.

جلست لورا على حافة السرير، لا تأتي بحركة. ماذا يفعل؟ هل نام على المقعد؟ أم يخطط لخطوته التالية؟ لن يستسلم بسهولة، لا سيّما أن كبرياء رجولته على المحك.

امتد الصمت من ثوانٍ إلى دقائق.. أحست بعينيها تغمضان، وبظهرها ينحني على الرغم منها. ثم أخذ رأسها يدور.. إنه إحساس غير مريح أبداً. لا بد أن بارت قد نام. على الأرجح، أصبحت آمنة الآن وإلا.. وهبط ذقنها إلى صدرها.

تحركت قبضة الباب مجدداً، فقفزت مجفلة، وهي تصيح مذعورة:

ـ ابتعد من هنا! أنا أكرهك بارتلوميو مانتغ!.

ـ لن أستخدم القوة! أريد أن أكلمك ببساطة.

ـ تكلم إذن.

ـ أفضل أن أرى من أتكلم إليه.

أصابها خوف حاد، فأخذت تعاني من ألم الرأس، والغثيان، في آنٍ. ثم قالت لورا بفروغ صبر: «لكنك سيء الحظ.. بارت.. ابتعد من هنا! اذهب إلى النوم.. عد إلى غرانتهام.. اذهب إلى الجحيم.. لكن ابتعد!».

استدار المقبض، وطقطقت ألواح الخشب، وكأنه يدفعها بكتفه. بقيت مسمرة على السرير، تتأرجح بين الذعر والضحك. لو استمر الوضع على هذه الحال، لانتهت إلى الهستيريا حتماً. كان الموقف مضحكاً لسخافته.. ازدادت حركات مقبض الباب قوة حتى ثارت أعصابها.

توقفت الحركات.. وحل الصمت مجدداً.. لكن الصمت لم يشعرها

بالهدوء، أحست لورا أنها ستصرخ بين لحظة وأخرى.. لقد اكتفت من كل هذا.. لن تجلس بخنوع على السرير وتنتظر أن يقتحم بارت الباب، حتى ولو أراد فقط أن يتكلم معها. بحذر شديد، ومن دون أن تصدر أي صوت، نهضت عن السرير ووقفت.. سارت بخفة على الخشب الصنوبري لئلا يصدر عنها أي صوت.. ثم تسللت على رؤوس أصابعها حول السرير.. طقطق لوح خشب.. فتوقفت جامدة، وقلبها يضرب بشدة. لكن صمتاً كاملاً ساد من الناحية الأخرى للباب.. فتقدمت إلى النافذة.

انسل شعاع نور من تحت الباب، فأنار لها الطريق. فتحت النافذة قدر استطاعتها، ونظرت إلى فجوة النافذة بارتياب.. ستبدو شديدة الغباء لو علقت.. وكم تكره أن تطلب مساعدة بارت.

صعدت على الصندوق الخشبي بجسم متشنج.. بعدئذٍ، رفعت ساقاً من فوق الإطار، ثم الأخرى، وأمسكت الإطار الأعلى بيديها، ثم لوت جسمها إلى الجانبين، لتمر عبر فجوة النافذة.. وفي اللحظة الأخيرة دفعت نفسها بقوة قدر ما استطاعت.. فخدشت النافذة الثابتة ضلوعها..

انتصبت واقفة.. فشعرت بالمطر على وجهها وذراعيها.. لم تكن ترتدي سوى قميص قطني وبنطلون جينز.. حاولت أن تستعيد رباطة جأشها، لكن الظلام الدامس ضاعف من صعوبة مهمتها..

أخذت تسير متعثرة في الممر، وهي تدوس على العشب والجذور النامية بقدمين حافيتين فيما الصخور المدببة تبعث الألم فيهما.. وخدشت الأغصان ذراعيها، فيما علقت أغصان أخرى بشعرها وراحت تصفع وجهها، اخترق المطر ثيابها وبلل جسمها.. قاومت باندفاع، وهي تتحسس طريقها على غير هدى. أخذت تفكر.. سأكون آمنة مع تشارلز.. وأخذت الكلمات تتردد بجنون في رأسها.. آمنة مع تشارلز.. آمنة مع تشارلز..

حين كشفت الأشجار عن فسحة، أحست باقترابها من الكوخ، فكادت تصيح وقد أعياها البؤس والإحباط.. كان الكوخ مظلماً. اتسعت عيناها بحثاً عن الجيب. لكنها، لم تجده.. تشارلز غير موجود.. في الوقت الذي هي فيه

بأمس الحاجة إليه . . غير موجود .

لن يصعب على لورا أن تجلس على العشب لتندب حظها حتى تجحظ عيناها . . لكنها ابنة دونالد والكر . . والدها رجل متماسك ، عنيد ، علّمها دروس الحياة جيداً . . أخيراً اتخذت قرارها . تشارلز في الخارج . . ولسوف تنتظره في الكوخ . فإذا كان الباب مقفلاً ، فستدخل عبر إحدى النوافذ .

لم يكن من السهل عليها أن تصل إلى أعلى السلم . وحين فرغت من هذا الإنجاز المعقد ، أمسكت بمقبض الباب . . وتنفست بدعاء صادق ، ثم أدارته ، وانفتح الباب .

وقفت من دون حراك تحت المطر وهي لا تصدق حظها السعيد . . الباب مفتوح . . وتستطيع أن تدخل .

دخلت ، وهي تغلق الباب بهدوء وراءها . سوف تقفله ما إن تجد زر النور . فلن تخاطر أن يلحق بها بارت إلى هنا .

وقفت جامدة للحظة ، تحاول أن تتبيّن ما حولها . بدت الغرفة أشدّ ظلمة من الخارج . . لم تتذكر مكان المفروشات . .

افترضت أن كوخ تشارلز مشابه لكوخها ، فاتجهت إلى الجدار الأيسر ، حيث ستجد ، من دون شك ، أقرب زر للكهرباء . خطت بضع خطوات بحذر .

لم تحس بوقع أقدام تتبعها . . فجأة ، أطبقت عليها ذراع فولاذية من خلفها . ثم التفت ساق حول قدميها ، وغطت يد فمها لتخنق صيحة الرعب الغريزية . . أخذت تتلوى برعب ، ومن دون جدوى . تراخت الذراع حولها قليلاً . . لتزيد من آلام جسمها الطري . . هنا ، ارتفع صوت رجل :

ـ ما هذا بحق . . لورا؟

تمتمت ببضع كلمات غير مفهومة . . ثم أبعد الرجل يده وأضاء النور . . فرفعت عينيها وإذا بوجه تشارلز يظهر أمامها .

بدا مذعوراً ، وقلقاً على إصاباتها الجديدة . . ترنحت قليلاً ثم قالت بوقار كبير : «تشارلز» .

ارتسم العبوس على جبينه .

ـ ما بالك؟ . . تبدين شاحبة جداً .

كان قلبها يتخبّط في صدرها ، أما بقية أطرافها فارتجفت من البرد . . اتسعت عيناها . . واختفت الألوان المتبقية على وجهها ، وأحست بالقيء . فوضعت يدها على فمها وأسرعت إلى الحمام ، وهي تغلق الباب وراءها .

بعد خمس دقائق ، أخرجت كل شيء من معدتها ، فوقفت قرب المغسلة ، وغمرت وجهها بالماء البارد . . ثم غسلت فمها بعناية كبيرة . . كان تشارلز يقف في الخارج ، وهو يقول بين الفينة والأخرى : «لورا . . هل أنت بخير؟» .

تمكنت أن ترد أخيراً . .

ـ أنا بخير . . سأخرج حالاً .

نظرت إلى وجهها في المرآة ، فأجفلت حين لاحظت امتقاعها الشديد . وما لبثت أن فتحت الباب .

أخذ يحدجها من رأسها حتى قدميها . . ووجدت صعوبة في قراءة تعابير وجهه . . كان مزيجاً من القلق ، الضحك ، الارتياب ، والحنان . .

أخيراً ، تفوهت بوهن شديد : «مرحباً . . » .

ـ سأملأ المغطس بالماء الساخن ، وأعيرك بعض الثياب . . أما التفسير ، ففي ما بعد .

مر طيف ابتسامة على فمها : «فكرة جيدة» .

كان الحمام الساخن ، والثياب المريحة أعجوبة من الأعاجيب . . جففت لورا شعرها وسرّحته ، ثم نظرت إلى نفسها في المرآة ، وقد انفرجت أساريرها . . والآن ، إلى الشرح .

كان تشارلز قد أشعل ناراً في المدفأة وفرش الأرض بالوسائد واللحاف . . غطت لورا نفسها باللحاف ، وأراحت ظهرها على المقعد . ثم أغمضت عينيها لوقت قصير ، وهي تشعر بحرارة النار على بشرتها . . وهمست بصدق : «إنه شعور رائع» .

جلس تشارلز قبالتها .

ـ هل تأكلين شيئاً . . أم تريدين شراباً؟

ارتجفت: «لا!».

كانت عيناها لا تزالان مغمضتين، وقد ارتسمت الهالات الزرقاء تحتهما.. بعد قليل، زحف لونٌ باهت إلى خديها، وغادرها الارتجاف، فقال لها: «هيا.. أخبريني».

لاحت نظرات مرحة في عينيها، وتطلعت إلى ألسنة النار البرتقالية المتراقصة.. ثم استدارت إليه على مضض.

- سيبدو كلامي سخيفاً جداً.

- أخبريني لورا.

راحت تفتش عن الكلمات بتلعثم. فوصفت له كيف حمل بارت حقيبته إلى الكوخ، وتكلمت عن الجدال الذي دار بينهما. ثم ذكرت له عصير الطماطم المليء بالبهارات القوية.

- رفض أن يغادر، مدعياً أنه لا يستطيع القيادة.. ثم.. عانقني.. مرة واحدة فقط.. حضرت له الغرفة الإضافية، وذهبت إلى غرفتي ووضعت الكرسي تحت مقبض الباب.. فقد تعلمت هذا من الأفلام السينمائية. لكنني كنت خائفة مع أنني لا أستطيع أن أشرح السبب.

- حاولي.

أخذت تعد الأسباب على أصابعها: «إنه أضخم مني حجماً.. وقد استشاط غضباً، لأنني لم أوافق على الزواج به.. وهذا كل شيء. ولا أظنه كان سيحاول التهجم علي.. أو أي شيء كهذا.. في الحقيقة، لا أظنه يهتم بالجنس الآخر إلى هذا الحد.. فهو مولع بأمه».

- إذن.. لماذا وصلت إلى منزلي بقدمين حافيتين، وسط الليل، وتسللت كاللصوص؟

- ظننتك لست هنا! لم أر الجيب.

- أوقفته في السقيفة الصغيرة وراء الكوخ، لأحميه من المطر.. وإلا تلطخ بالصمغ المتطاير من الصنوبر.

- لم أكن أعرف هذا.. هل ظننت أنني لص حقاً؟

- بكل تأكيد.. أردت النوم لكنني لم أستطع. حين سمعتك على السلم، نهضت من السرير، وارتديت ثيابي.. وأمسكت بك قبل أن تتمكني من قتلي في فراشي.

قالت بوقار: «كلام مجازي».

- هذا صحيح.. هل أذيتك؟

- أوه.. لا.. فأنا أحب أن تسحق أطرافي، ويسد فمي، ثم أقع في الفخ.

- لو عرفتك لتقدمت إليك بشكل مختلف.

كشرت في وجهه: «هذا من حظك.. أتعني أن النساء المبللات الضعيفات، يعجبنك؟».

- إذا كنت أنت.. أجل.

قالت بمزيج من الصدق والمكر في عينيها: «أعاني من صداع».

- أنت آمنة الليلة لورا.. والآن أجيبي عن سؤالي.. لماذا تركت كوخك؟

أخفضت ركبتيها، وهي تنظر إلى النار.

- حسن جداً.. كنت جالسة على سريري في الظلام، فيما بارت واقف في الجهة الأخرى، يريد أن يدخل.. ليتحدث كما قال.. قد يكون صادقاً.. لكنني رأيته يدير مقبض الباب بقوة، ثم يحاول دفع ألواح الخشب.. كان المطر ينهمر والظلام دامس.. خفت، تشارلز.. مع أنني واثقة أن بارت لن يقوم بأي عمل عنيف. لكنني كنت خائفة.. كان الموقف غامضاً.. مع ذلك.. شريراً.. هكذا خرجت من النافذة، وجئت إلى هنا. لقد قال لي إنني أتصرف بهستيريا، وربما كنت هكذا.

- لا أظن هذا لورا.. لكنني أعرف قولاً قديماً يقول إن الأمان أفضل من الندم. وأعتقد أنك كنت حكيمة في خروجك.

أطلقت تنهيدة صغيرة: «أنا مسرورة لهذا».

وبتأثير من التعب، أضافت ببراءة:

- لا أريد أن تظن أنني تصرفت بهستيريا.. أريد أن تحسن الظن بي.

مال إلى الأمام وقال:

ـ هذا هو رأيي لورا . . ويجب أن تعرفي هذا.

لم تكن كلماته رومانسية، مع ذلك أحست بالسعادة، وقالت:

ـ جيد.

ابتسم لها وتراجع إلى الوراء: «لنعد إلى بارت قليلاً . . أنا أؤمن بالمساواة بين الرجال والنساء . . لكن في نطاق القوة الجسدية، أجد صعوبة في تطبيق مفاهيم المساواة. بارت أضخم حجماً منك . . وكان يمكن أن يؤذيك. والمرأة لا تتصرف بهستيريا حين تبتعد عن مثل هذا التهديد. حتى لو كان غير واضح . . لا بل تكون عاقلة كلياً».

ـ ماذا لو جاء يبحث عني؟

ـ أتعنين . . هنا؟ بما أنه لم يأتِ بعد، فلا أظنه سيأتي أبداً . . إذ لا ينقصه الذكاء . .

وابتسم: «على أي حال لا تقلقي . . ألم تتأثري دائماً بعضلاتي؟ لا يمكن لبارت أن يغلبني».

ضحكت على الرغم منها، وأحست بالراحة والأمان . ثم تثاءبت قليلاً وأراحت خدها على ذراع المقعد، فيما النار تتراقص في عينيها.

قال تشارلز: «تبدين مرهقة لورا. لقد حضرت لك الغرفة الإضافية».

قالت بنعاس: «لا أظنني أقوى على السير إلى هناك».

ـ هل تلمحين إلى شيء ما؟

فتحت عينيها: «لا، بالطبع لا».

ـ أوه . . هيا الآن . . دعيني أغلبك في هذا الجدال على الأقل.

انحنى والتقطها، مع اللحاف. فلفت ذراعيها حول عنقه، وقالت وفمها على خده:

ـ ستصبح هذه عادة فيك.

ـ وعادة لطيفة جداً . .

ـ فكرة رائعة.

ما كانت أمها المتزمتة لتوافق أبداً على الطريقة التي تعلقت فيها لورا بعنقه . .

سمحت له أن يأخذها إلى الفراش . . كان الظلام قد أطبق بستاره على أرجاء الغرفة . . وأخذ المطر يطرق زجاج النوافذ بقوة . . لكنني آمنة مع تشارلز . . وفيما هذه الفكرة تتداعب أحلامها، خلدت إلى إغفاءةٍ هانئة.

* * *

٨ ـ لا تهدني القمر!

في الصباح التالي، عادت لورا إلى كوخها وهي تشعر بالتعب، وبدرجة من الخوف. لكن بارت كان قد رحل، وترك فراشه من دون ترتيب.. ترك لها رسالة تحمل لمسة قانونية خط فيها: بسببك شعرت أنني إنسان غير مرحب به.. و.. سأنتظر عودتك باكراً.. لم يتخلّ بارت عن الأمل بعد. لا شك أنه يعتقد أنها تعاني من جنون منتصف الصيف، وأنها ستعود إلى غرائنهام، لتلعب دور خطية محامي البلدة بانصياع وقناعة.. بكلمات أخرى.. لم يصغ بارت إلى حرف واحد من كلامها. لكن ما قبل قبل.. لقد تحررت من أي التزام مع بارت...

حلت مشكلة بارت.. بهذا فكرت لورا قبل أن تخرج... أخرجت الورق الذي خبأته جيداً، واستعرضت أهدافها المالية المختلفة.. كادت تفرغ من دروس الكيمياء العضوية.. لكن تشارلز لم يغادر تفكيرها قط.

كانت تراه كل يوم، مرة على الأقل.. أحياناً مرتين أو ثلاث. كانا يسبحان، ويتمشيان على الشاطىء. وفي المساء يشويان اللحم في العراء أو يأكلان عند آني التي اهتمت بتأمين جو رومانسي ساحر. في الأمسيات الممطرة، كانا يجلسان ليقرآ قرب النار. أو يذهبان إلى مباريات كرة السلة، ولكم غمرتها السعادة حين ربح فريق تشارلز للمرة الأولى.. في بعض الأحيان، كانا يسيران نحو المياه العميقة ويصطادان الأسماك.

لكن بقي شيء واحد لم يقوما به.. لم يتحدثا قط عن عائلة تشارلز، أو خلفيته، أو عمله.. كما لم يعانقها..

كان يقبل رأسها حيناً وخدها حيناً آخر، لكنه لا يلمسها إلاّ نادراً. مع ذلك، عرفت لورا من نظراته، من الشرر الذي يشتعل في عينيه، أنه يريدها.. وأنه ينتظر شيئاً لا تعرفه. لكنها قنعت بمسار الأحداث هذا.. كانا يتعلمان أشياء كثيرة عن بعضهما بعضاً.. وعلى مرّ الأيام، أصبحا صديقين. على الأقل، لورا هي التي استخدمت كلمة الصداقة. لم تكن تريد أن تتلفظ بالكلمة الأخرى.. الحب.. إذ لا تريد أن تعترف أنها وقعت في حب الرجل الذي يمثل في قلبها لغزاً غامضاً.

ولقد دلت مناسبة عيد ميلاده بوضوح على أنه لغزٌ فعلاً. لطالما أرادت أن يكون عيد ميلاده حدثاً مهماً.. حين سبحا معاً ذلك الصباح، ذكرته أنه مدعو للعشاء في كوخها، ثم مالت إليه لتقبل خده المبلل بالملح.

ـ عيد ميلاد سعيد.

ـ إذن تذكرت.

ـ طبعاً! وهل ظننت أنني سأنسى؟

كان مشغولاً بتجفيف نفسه بالمنشفة: «لا أعتقد هذا».

قالت: «تشارلز ريتشاردز.. انظر إلي!».

أطاعها بعينين حذرتين، فأكملت بلطف أكبر:

ـ لقد وعدت أن أدعوك للعشاء يوم عيد ميلادك. ولا يمكن أن أنسى هذا.

ـ أنت حلوة جداً لورا.

قالت بمكر: «حلوة؟».

ـ وحاذقة، تستحقين الثقة.. وشرسة.

قبّل رأسها!

ـ وناعمة ومرنة.. وشديدة الحرارة.

بذلت جهداً لتتمسك بشجاعتها وكأنها عقد انفرطت حباته.

ـ كل هذا يعيدنا إلى كلمة حلوة؟

ـ يمكن أن أضيف، ودودة، دافئة، وكريمة. الواضح أن حلوة لا تكفي.. أليس كذلك؟

ومن دون أن يغير لهجة صوته، أردف:

ـ أريدك الآن لورا.

شهقت: «لا تقل هذا».

ابتسم: «لقد تجنبنا هذه المسألة لأيام طويلة.. لا تعتقدي أنني كنت أبتعد عنك، أو لا أعيرك اهتماماً، فهذا بعيد عن الحقيقة بعد السماء عن الأرض».

التفت لورا بمنشفة لا لتشعر بالدفء بل بالحماية.. ولم تعرف ماذا تقول.

حل لها المعضلة: «هل تريدينني لورا؟».

ردت بحرارة: «أنت مختلف تشارلز.. وأقول لك هذا. معظم الرجال يتلاعبون بعواطف المرأة فيغرونها بالورد ويشبهونها بالقمر قبل أن يطرحوا هذا السؤال. لكنك تتقرب مني بصراحة، في الوقت الذي أشعر فيه بالبرد والرطوبة».

ـ لكنني أعرف هكذا أنك لست مسحورة بضوء القمر والورود.. وسأعرف أن ردك حقيقي.

نظرت إليه عبر رموشها: «بالمنطق.. لا بالعاطفة؟».

ـ بكليهما.

لقد ضيق عليها الخناق. وبما أنها امرأة صارمة، رفعت ذقنها، ونظرت إلى عينيه، ثم قالت: «أجل.. أريدك ولكن هذا لا يكفي أبداً!».

تقدم خطوة إليها، ثم توقف.. وقال بلهجة العاجز: «لورا.. يا أعز الناس.. لورا».

لم تكن قد شاهدت هذا الحنان المشع في عيني رجل من قبل، ولا أحست بمثل هذه السعادة وهذا الشوق. ولأول مرة تتساءل هل يمكن أن يقع تشارلز في حبها حقاً.. لا يمكن أن يعرف أنها ربحت مليون دولار، ولاشك أنه أحبها لنفسها. ولم تدرك أنها أرادت حبه بيأس، إلا بعد أن أصبح ممكناً.

كانت يداها تمسكان بالمنشفة وهي تضمها إلى صدرها. أمسك يدها اليسرى يرفعها إلى شفتيه، ثم طبع قبلة في راحة كفها. كانت شفتاه باردتين، كبشرتها تماماً.. مع ذلك، لم تظن أنها قد تتلقى يوماً أجمل من هذه البادرة اللطيفة..

قالت بتهور: «دعنا نرتدي أفضل ملابسنا الليلة، تشارلز.. ولنجعل من مناسبة عيد ميلادك مناسبة سعيدة.. هل سترتدي بذلة؟».

ـ إذا ارتديت فستان سهرة.

ضحكت وهي لا تزال تطوف في غيمة السعادة:

ـ حسن جداً.. سيكون الأمر رائعاً!

ـ هل أنت واثقة أنك لا تريدين أن أصطحبك للعشاء لورا؟ لا يبدو إنصافاً أن تنعي نفسك بكل هذا العمل.

ـ إنه ليس عملاً.. فأنا أريد أن أفعله لأجلك.

بدا مرتبكاً.. غير واثق من موقفه: «ستفسدينني».

ردت بقدر ما تستطيع من دبلوماسية: «ألم تخبز لك أمك يوماً قالب حلوى تشارلز؟ ألم تحاول أن تجعل هذا يوماً مميزاً؟».

ـ كانت تطلب أغلى قالب حلوى من المخبز.. وهذا ليس الشيء عينه.

وافقته لورا. وهي تتساءل عن الأشياء التي ذكرها، والتي لم يذكرها.

ـ أتفضل قالب حلوى بالشوكولا أو بالكريما؟

ـ بالشوكولا.. والكثير من الزينة!

ـ سيكون لك هذا!

قبل خدها بشكر صامت، حتى كادت تبكي.. وسألها: «متى يبدأ العشاء؟».

ـ في السابعة.

ـ سأكون هناك.. شكراً لورا.

وردت بوقار: «هذا من دواعي سروري».

ثم عادا إلى كوخيهما جنباً إلى جنب.

تقدمت ساعات النهار، لكن ذلك الحديث لم يفارق ذهن لورا.. عنت كل كلمة حين قالت إنها تنجذب إليه، ولكن هذا لا يعني أنها مستعدة لإقامة أية علاقة؟ فهي ترفض أن تكون علاقتهما علاقة عابرة وهي لا تقبل بأقل من الرباط الأبدي الشرعي.

كانت أمي تطلب أغلى قالب حلوى.. فهل هذا يعني أن والديه من الأثرياء؟ أم أنه يقصد أن والدته مسرفة وليست معتادة على العمل المنزلي؟ إذا كان ثرياً،

فلماذا يخفي هذا عنها؟ أم أنه يخجل من مصيبة حلّت بهم: إفلاس، أو فضيحة؟

أيخفي عنها جرماً ارتكبه؟ لو صح ذلك، فستدرك أنها لا تحسن تقويم الناس أبداً. فتشارلز مستقيم، وهي تقسم على هذا. لا شك أن هناك تفسيراً بسيطاً لغضبه حين سمعت مكالمته الهاتفية. وهو بالطبع، أخفى أحرف اسمه، وتمنع عن الحديث عن والديه لأسباب نافهة. لكن، ما يحز في نفسها جداً هو عدم ثقته بها.

أمضت بعد الظهر تعمل في المطبخ.. طبخت حساء الكركند، وحضرت سمك الهالبون المسطح لتسلقه.. ثم خبزت قالب حلوى بالشوكولا بطبقتين وزيته بسخاء ما إن برد. بعد ذلك حضرت الطاولة بمفارش جديدة، ووضعت عليها شمعتين.. ثم أعدت الحطب في المدفأة استعداداً لإشعال النار. أخيراً، استحمت وارتدت الفستان الذي ارتدته يوم أخذها إلى «كيلنك لودج».

كانت أعصابها متوترة طوال الوقت، بل الصواب أنها كانت خائفة حتى الموت. زينت عينها اليمنى بالظلال الملونة.. ثم مسحتها، وبدأت من جديد، ويدها لا تكف عن الارتجاف. تمالكي نفسك لورا.. لست مراهقة ساذجة.. لم تعودي في التاسعة عشرة.

قرع الباب في تمام السابعة. فخلعت مريلتها، ولمست شعرها وهي تظهر ابتسامة أملت أن تحتوي على الدفء والترحيب، مع رباطة جأش هادئة.. لكن مهمتها لن تكون سهلة أبداً.. حين فتحت الباب، ارتجفت البسمة وتلاشت فجأة، فقد بدا تشارلز أنيقاً جداً ببذلة صيفية خفيفة، وفي يده باقة ورد أحمر قاتم.

قال: «هذه لك».

ـ لكن.. لكن.. هذا.. عيد ميلادك.

ـ لا يهم.

ـ لكن، كل ما أحضرته لك، هو بطاقة معايدة.

من فوق كتفها، لمح المائدة المحضرة بعناية وتسللت إلى أنفه أشهى الروائح، لا سيّما رائحة حساء الكركند.

ـ أنت تقدمين لي أكثر من بطاقة لورا.. هل ستدعينني إلى الداخل؟

تمتمت: «طبعاً».

عندما تراجعت.. أغلق الباب خلفه، ثم وضع باقة الورد بين ذراعيها.. وقال: «لم أستطع أن أحمل إليك القمر.. لكنني تمكنت من الحصول على الورد».

ـ إنها جميلة.. تشارلز.. لا بد أنها دزينتا ورد. ستصبح فقيراً.

ـ لو اضطررت إلى تناول الهامبرغر لبقية الأسبوع لما همني الأمر. من نظرة واحدة إلى وجهك، عرفت أنك لم تتلقي ورداً من قبل.

ـ تلقيت دزينة مرة.. حين كنت في الجامعة.. لكن كان هذا منذ زمن بعيد.. سأضعها في الماء.

وتلاشى توترها.. فابتسمت له ابتسامة طبيعية.

ـ شكراً لك تشارلز.. إنها جميلة.. لم لا تصب العصير بينما أجد إناء؟

بعد ذلك، مضت الأمسية على ما يرام.. وحين استعدا للحلوى.. كان الظلام قد خيّم في الخارج.. دخلت لورا إلى المطبخ، وأشعلت دائرة من الشموع على قالب الحلوى وحملته إلى غرفة الجلوس.. ألقت الشموع الصغيرة دائرة من الضوء على وجهها.. وضعت الطبق أمام تشارلز بحذر:

ـ يجب أن تطلب أمنية قبل أن تطفىء الشموع.

أخذ ينظر إلى قالب الحلوى.. كانت الزينة البيضاء مثبتة فوق الشوكولا! عيد سعيد تشارلز.. بدت الأحرف ملتوية لكنها مقروءة.

ـ تشارلز؟ سيسيل الشمع على الزينة.. تشارلز.. هل أنت بخير.

قال بصوت غريب: «أجل..».

وأطفأ الشمعات.

ـ أجل.. أنا بخير.

ـ لا تقل لي ما تمنيت، وإلا فلن تتحقق أمنيتك.

ـ لن أقول لك.. لا أستطيع بعد، على أي حال.. لورا.. تعالي إلى هنا.

سارت إليه بتردد.. فأمسك برأسها وقبل جبينها.

ـ شكراً لك.. لم يصنع لي أحد قالب عيد ميلاد من قبل.

ـ ولماذا؟

ـ من الأسهل شراؤه.. كما أعتقد.

لم تتوقع منه هذا الرد:

- تشارلز.. هل تخجل من عائلتك؟ ينبئني شعوري أنك تخفي شيئاً.. ولا أفهم السبب.

- لا.. لست أخجل من عائلتي. وآمل ألا يمر وقت طويل لأكشف لك عن كل شيء. وحتى ذلك الوقت، أطلب منك التحلي بالصبر.

عضت على شفتها: «ألا تثق بي؟».

- لا علاقة للثقة بهذا. أحضري لي سكيناً لأقطع القالب.

غيّر الموضوع. ولن تستطيع أن تضغط عليه. فلو فعلت، لسألها عن سرّها هي. فذهبت تحضر السكين، وراقبته يقطع القالب بصمت.

بعد انتهاء الطعام، أصرّ على مساعدتها في غسل الصحون، رغم اعتراضها. غاصت يدا لورا في ماء الصابون بينما راح تشارلز يجفف الصحون. وقد سرّت أن الجزء الأول من الأمسية قد انقضى بسلام. حين أنهت غسل آنية الطبخ، رن جرس الهاتف. فنظرت بلهفة إلى الساعة:

- أرجو ألا تكون مسألة خطيرة. أكره المخابرات الليلية.

جففت يديها ثم اتجهت إلى الهاتف مسرعة: «ألو؟».

- لورا.. لقد قبلت! بيسكاغليا تريدني! لورا.. أفضل مُعلّم غناء في البلاد يريدني تلميذاً له!

- كيث! هذا رائع عزيزي! أهنئك!

- لقد اتصل بي منذ خمس دقائق.. وكان عليّ أن أخبرك.

- أنا سعيدة لأنك أخبرتني.. أين أنت؟

- في تورنتو.. وسأعود إلى البلدة غداً.. سأبدأ الدروس في الشهر القادم.. يبدو أنه برنامج مشحون، لكنني سأتعلم الكثير.. ومن أفضل المصادر. لا أكاد أصدّق.

تركته يتابع كلامه، وهي سعيدة له من الأعماق. كانت تعلم كم ستشتاق إليه، إلى ثباته في الشتاء القادم. أخيراً قال: «بقيت معضلة واحدة.. أحتاج إلى تأمين، ولا أملك ما يكفي من المال».

- ما من مشكلة.. أكتب له شيكاً وسأتصل في الصباح لأنقل لك المبلغ من حسابي.

أحست بتردده ينتقل إليها عبر مئات الأميال التي تفصلهما..

- قد أحتاج إلى المزيد في ما بعد ولا أظن الوقت سيسمح لي بالعمل خلال الشتاء.

- هذه ليست مشكلة كيث.. سنتحدث بالأمر حين تعود إلى المنزل.. متى تعود مجدداً إلى تورنتو؟

- في أواسط آب.. لورا، أقسم أن أرد لك كل سنت.

تأثرت باستقلاليته وقالت بمرح:

- أنا واثقة من كلامك.. كيث.. أنا سعيدة جداً لك.

- أعرف هذا.. لذا اتصلت بك.. أنا أتصل من هاتف عام في الشارع، ولم يبق معي نقود معدنية.. لذا من الأفضل أن ننهي المخابرة..

تودعا ثم أقفلت الخط.

التفتت إلى الخلف، فعرفت أن تشارلز سمع كل كلمة قالتها. فعادت إلى المطبخ لتقول بسرعة:

- هذا كيث.. لقد قبلوه كتلميذ في بيسكاغليا في تورنتو.

- لا بد أن صوته رائع، غالباً ما يغني تلامذة بيسكاغليا في الأوبرا.. لورا، سامحيني لصراحتي.. لكن كيف ستتحملين المصاريف؟ بيسكاغليا ليست رخيصة.

- لقد وفّر كيث بعض المال.

- هذا لا يكفي.. أراهن على هذا.

- سنفكر بشيء ما.. أتريد المزيد من القهوة؟

- لدي بعض المعارف في تورنتو.. وأنا واثق أنني سأجد من يتولى رعاية كيث.

ليتها تستطيع أن تقول: «أستطيع تحمل النفقات.. لدي الكثير من المال». لكنها لن تخبره بهذا.. تريد أن يخبرها بحبه، دون أن يعرف شيئاً عن المال..

Rewity.com

سرعان ما أبعدت هذا الموضوع المثير للاضطراب عن فكرها . . لكن هل تحب
ي تشارلز؟

وقالت: «أوه . . لا . . لا نستطيع أن نفعل هذا».

ـ لِمَ لا؟

حرّكت أنفها: «يبدو وكأننا نطلب الإحسان».

ـ رعاية الفنانين رائجة منذ مئات السنين.

ـ على أي حال . . كيث لن يقبل.

ـ وقد يقبل.

بدأ الغضب يظهر عليها: «سألتك هل تريد المزيد من القهوة».

ـ أنت مستقلة بشكل بالغ!

ـ وهل تفضل أن أتسول؟

ـ أفضل أن تكوني واقعية.

فتحت باب الفرن ودفعت بوعاء إلى داخله بحدة:

ـ أنت تفضل لو أنفذ كلامك!

ـ لورا . .

لكنها لم تنته بعد:

ـ كيف تظن أننا تدبرنا أمورنا في السنوات الأربع الماضية؟ هل مددنا أيدينا طلباً للعون؟ بالطبع لا . . لقد عملنا . . كلنا . كان الصغيران يوزعان الصحف . . ويعمل دارين منذ ترك المدرسة. كان كيث يدفع كل نفقات جامعته . . أما أنا فكنت أعمل في مستشفى . . ولهذا أصبحنا جميعاً نقدّر ما لدينا . لا نقل شيئاً . . أعرف أنني عنيفة المزاج وأؤمن بأخلاقيات العمل . . وإذا كان من شيء حققته منذ أربع سنوات وحتى اليوم، فهو تأسيس معتقداتي في الأولاد . . «ادفع ما عليك وتحمّل مسؤوليتك بنفسك».

وقفت ببطء وأدركت كم خافت أن تخسر كل هذا حين ربحت اليانصيب.

ـ وهل تلمحين إلى أنني مختلف؟

أدارت رأسها إليه بحدة. لقد لمست في صوته غضباً حقيقياً، وعرفت أنها

بطريقة ما قد ضربت على الوتر الحساس:

ـ لم أكن ألمح إلى شيء من هذا النوع! وكيف ألمح؟ وأنا لا أعرف شيئاً عنك، ولا عن ظروفك المالية، ولا حتى عن طريقة تنشئتك. فلطالما رفضت أن تناقش هذين الموضوعين.

انتزع سترته عن الباب وارتداها مجدداً.

قال: «هذا لن ينجح أبداً . . أليس كذلك؟ نحن نتشاجر على كل شيء . . من الأفضل أن أعود إلى منزلي».

نظرت إليه حانقة: «لماذا؟ لماذا نتشاجر؟».

ابتسم ابتسامة متكسرة: «لأننا في الأساس إنسانان صادقان يحاولان الخداع من دون نجاح . . هذا السبب الأول. وقد يكون الإحباط السبب الثاني . . لكن هذا ليس بجديد . . أليس كذلك؟ أعتقد أن مزاجنا لن يسمح لنا بالتخلص من هذا الإحباط».

صاحت: «لكنه عيد ميلادك!».

ـ سأذكر دائماً المتاعب التي تكبدتها، وقالب الحلوى الجميل . . شكراً لك لورا.

قبلها على خدها الأيسر: «سأمر في صباح الغد، لأرى إذا كنت راغبة في السباحة . . ليلة سعيدة».

وغادر المكان . . وأغلق الباب خلفه . . لقد غادر الكوخ!

كانت لورا تكره النساء الباكيات، لكنها انفجرت بالبكاء. ظلت تبكي لعدة دقائق، ووجهها مدفون بين يديها، وكتفاها تصعدان وتهبطان . . لقد تدمرت الأمسية بأكملها وأصابتها شظاياها في الصميم . . أرادت بشدة أن ينجح عيد ميلاده على أكمل وجه . . أن تكون أمسية يتذكرها دائماً . . أوه! سيتذكرها على أي حال . . لكن ليس للسبب الذي ترجوه.

في النهاية دخلت إلى الحمام، فغسلت وجهها، ومسحت أنفها . . نظرت إلى المرآة وقالت لنفسها أنت تحبين هذا الرجل . . اعترفي بهذا لورا . . أنت تحبين تشارلز ريتشاردز.

راقبت الدموع تترقرق في عينيها، ثم تنسكب من فوق رموشها. في الخريف، يعود تشارلز إلى تورنتو، ليتابع الحياة التي يعيشها هناك، أيّاً كانت حياته.. بينما تعود هي إلى غرانتهام، من دون أن تملك خياراً آخر.. وسرعان ما ينساها. وقد يسر لأنه لن يراها مجدداً، ولكم أرعبتها هذه الفكرة.

مسحت أنفها مجدداً.. ثم توجهت الى غرفة نومها.

بثورة غضب طفولية، رمت حذاءها في الغرفة.. ألقت فستانها على الكرسي، ثم دخلت السرير وجذبت الأغطية فوق رأسها.. وأغمضت عينيها.

جلست.. وغيرت الوسادة إلى وضع مريح أكثر، ثم عادت إلى النوم، وهي تفكر بغضب.. هذا تأثير الهرمونات.. كل هذا بسبب الهرمونات..

لكن هذا لم يفدها..

لا شك أن هذه الهرمونات في تشوش عظيم في جسمها، ويعود سبب بؤسها ببساطة، إلى حبها لذاك الرجل.. نعم أنا أحب تشارلز. وأحتاج إليه.. رفست الأغطية بقوة وقد بدت وكأنها تندب حظها السيء. لكن هذا أيضاً، لم يفدها.

كانت الساعة قرب السرير تشير إلى الزمن الذي يضيع منها، فيما الأمواج تعزف أنغامها المعتادة، على الشاطىء.. شربت لورا كأس ماء.. وأخذت تعد الأنغام علها تنام.. ثم حاولت قراءة قصة غامضة، سبق أن سلّتها في ما مضى. في الثالثة إلا ربعاً، غفت وهي تقرأ الفصل الثاني عشر من الكيمياء العضوية.

* * *

٩ - وهم وسراب

بعد خمس ساعات ونصف، وقف تشارلز عند باب غرفة نوم لورا.. كان يرتدي ثوب سباحة وقد ألقى منشفته على كتفيه. في البداية، قرع الجرس، وعندما لم يتلق جواباً فتح الباب ونادى باسم لورا. فلم يسمع إلا الصمت.. بعد تردد قصير، دخل، دون أن يصدر عنه صوت لأن قدميه حافيتين.. وها هو الآن يقف بباب غرفتها.

أخبرته الغرفة حكايتها الخاصة.. الثياب المبعثرة، المصباح المضاء إلى جانب السرير، كتابان مرميان عند أسفل المنضدة، والشراشف الملقاة عن الفراش. عرف أن لورا لا تزال في السرير حين رأى الانتفاخ تحت الأغطية.. لكن كل ما رآه فعلاً هو كومة شعر أسود بين الوسائد.

لم يكن تشارلز معتاداً على هذا الموقف الذي يفضح من دون كلمات.. فبقي متردداً قرب الباب، ثم لمحت عينه دليلاً آخر: منديلين ورقيين مجعدين على الأرض. لورا إذن، كانت تبكي.

وكأنه كان ينتظر إشارةً ما، فاندفع إلى الغرفة، علق المنشفة على مقبض الباب، وتقدم إلى السرير، ثم جلس إلى حافته.. وقال: «لورا؟».

تجلت في صوته لمسة حنان، قد تدهش بعض معارفه في تورنتو.

أحس بأنفاسها الخفيفة تحت يده.. لكنه، لم يلمس منها أي تجاوب آخر.

زاد من ضغط يده: «لورا.. استيقظي».

كانت لورا تحلم أنها ستلاقي تشارلز بعد مباراة كرة سلة.. لكن سيارتها لم

تتحرك. وحين أقلّها أحد سائقي الشاحنات، أصر أن يصطحبها للعشاء عند آني.. فتناولا السمك وقالب حلوى الميلاد، ثم أوصلها آرتشي إلى الثانوية، متخذاً الطريق المعاكس. لكن، حين وصلا أخيراً، كان تشارلز قد ذهب. هنا، أقبل الشاب ذو السترة الجلدية السوداء، الذي ضربها في الزقاق، ولفها بذراعيه.. ثم أمرها أن تستيقظ.. فتمتمت بإلهام: «لم يتظرني». فجأة، أدركت أن اليد والصوت حقيقيان.

جلست مستوية وهي تشد الغطاء حتى أذنيها.. وقالت: «ماذا تفعل هنا؟».

ابتسم تشارلز لعينيها البنيتين المذعورتين.

ـ أنتظر نهوضك.

نظرت إليه مرعوبة ولكنها لاحظت أنه يرتدي ثوب السباحة والمنشفة على الباب.. قالت: «لن أسبح هذا الصباح».

أطفأ المصباح قرب السرير.. ولاحق بإصبعه الظلال الزرقاء تحت عينيها:

ـ أنت لم تنامي جيداً.

ـ أنا.. لا.

ـ ولا أنا كذلك.

شعرت لورا أنها ستستجمع قواها لو ارتدت ثوباً محتشماً. قالت بارتباك: «أوه..».

اتسعت ابتسامته، وامتلأت عيناه بالدفء! وقال: «كم تمنيت أن أكون حيث أنا الآن».

ومال إلى الأمام ثم عانقها.. عناقاً بطيئاً يحمل دلالات لا نهاية لها. وأحست لورا أنها تحلم مجدداً. فعاد تشارلز ينتظرها، وعادا معاً، كسابق عهدهما. امتدت يداه إلى وجهها فأعادتا إحياء الحلم، ثم تسللتا ببطء إلى كتفيها.. وأصبح شعاع الشمس اللاهي رمزاً لسعادتها، واستحال تغريد العصافير، غناءً لقلبها.. ولا بد أنه أحس بالصدمة تسري في جسمها، فتمتم:

ـ لورا.. هل تريدين أن أتوقف؟

عرفت أنها لو طلبت منه أن يتوقف، فسيفعل.. ولن يقدم على شيء ضد

إرادتها: «نعم أرجوك لا تكمل».

راقبت اللهفة تختفي ليحل مكانها ابتسامة.

أسبغ حبه عليها حلاوة.. وعضت على الكلمات التي كادت تندفق.. وقالت: «ظننت أننا سنسبح.. لكن، أريد أولاً أن أتناول الفطور، أو الغداء.. أو أياً كان».

ـ إذن.. أنت ترفضيني لصالح البيض واللحم.. لكنها تبدو فكرة رائعة.

مرر أصابعه في شعره. وترك عيناه تجولان فوق وجهها.. حين رفعت نظرها، قرأت تعابير وجهه، فاحمرت بقوة. كانت نظرته تنطق بكلمةٍ واحدة.. أحبك. لكنه لم يقلها، ولذلك، لم تنفوه بها بدورها. أرادت أن تبقى مختبئة تحت الأغطية، فقالت: «أريد الدخول إلى الحمام، فهل تسمح؟».

مد يده ليلامس خدها: «حسناً جداً.. شكراً لتفهمك لورا.. أنت رائعة..».

بكلمتين اثنتين منه، أحست أنها راضية.

لطالما تفهمت لورا عواطف الناس وتقبلتها.. ولو أنها رأت تشارلز يتصرف مع امرأة أخرى كما يتصرف معها، لقالت إنه يحبها. وحين أوشكت أيام العطلة على النهاية، صارا يقضيان الوقت بمرح وضحكٍ وسعادة لم يشعرا بها قبلاً في حياتهما. لكن، مع كل هذا، لم يفصح مرةً عن مشاعره، أو عن المستقبل.

تحدثت لورا مع كيث عبر الهاتف. كان قد عاد إلى المنزل.. وهو الآن يعمل في وظيفتين ليوفر كل سنت يكسبه، ولا يزال سعيداً. ثم تحدثت مع سوآن وعرفت أنها لا تزال مسحورة بستيف.. وهذا سجل طويل لها.. أما دارين، وحسب قول سوآن، فقد بدأ يحب عمله في مزرعة الألبان.. وقالت سوآن:

ـ إنها المرة الأولى التي يعمل فيها مع الحيوانات.. وأظن أن هذا مناسب له.. ولقد أصبح لطيف المعشر منذ حصل على هذا العمل.

قالت لورا بجفاء: «أو ربما لأنني بعيدة».

ردت سوآن بجدية:

ـ لا.. ليس الأمر هكذا.. لقد سأل عن أحوالك وطلب أن أبلغك

سلامه . . وأنا واثقة أنك ستلاحظين الفرق بنفسك عند عودتك . . .

ـ أرجو أن تكوني محقة . . تبدين تعبة سوآن .

ـ لا أشعر أنني على ما يرام، اليوم . . ففي المستشفى الانفلونزا مستشرية، وأظنني التقطها .

ـ اعتني بنفسك . . ماذا عن مدبرة المنزل؟

ـ لا بأس بها . لكنني سأكون مبتهجة حين تعودين .

ـ بارك الله فيك! سأتصل مجدداً خلال يومين . . ابعثي بسلامي إلى دارين .

وانتهى الاتصال .

لولا تشارلز . . لتطلعت لورا شوقاً للعودة إلى المنزل . . لكن فراقه يملؤها بالذعر . بين تشارلز وبارت، تصبح المقارنة كالمقارنة بين القمر والشمس . . فالقمر باهت ويستمد نوره من الشمس . . أما أشعة تشارلز فساطعة حارقة . تلك هي الحقيقة .

وهمس صوت شرير في أذنها : «لقد فشلت أحكامك على بارت وانطفأت بعد اشتعال . ومن يدري؟ قد تعود إلى الخمود مجدداً مع تشارلز . . » .

ردت على هذا الصوت بقوة : «أغرب عني . . نحن نتعلم من أخطائنا . . وتشارلز مختلف» .

قبل أسبوع من عودتها، وقعت لورا على اكتشافين اختصرا كل شكوكها . .

كانت قد استيقظت باكراً، وذهبت إلى كوخ تشارلز . . كان يغتسل في الحمام . . أما هي، فوقفت حالمة قرب النافذة تنظر إلى الضباب الرمادي، وابتسامة على وجهها . حين استدارت عن النافذة، صدمت ذراعها بكومة من المجلات، فأوقعت ثلاثاً أو أربعاً منها على الأرض . . ثم انحنت لتلتقطها . . كانت نسخ من مجلة إخبارية محلية، تصدر في هالیفاکس . أخذت تتصفح إحداها بلا اكتراث . . فجأة في أحدى الصفحات الأخيرة، وفي القسم المخصص للإعلانات، ظهر أمامها وجهها .

خفق قلبها . . في أسفل الصفحة، صفت صور صغيرة بالأبيض والأسود، لرابحي اليانصيب . لم تكن صورتها واضحة، إلا أنها تعرّفت إليها بسهولة . . وإلى

جانبها، طُبع اسمها واسم بلدتها .

هل رأى تشارلز الصورة؟ لو صح ذلك، فهو يعرف منذ البداية أنها امرأة ثرية، مليونيرة . هل كان مدفوعاً بأكثر من الفضول العادي حين سألها عن بلدتها، وعن كلفة دراسة كيث؟ هل سألها ليتأكد إن كانت فعلاً امرأة ثرية؟ وإذا كان الأمر هكذا . . فهل يعاني من فضيحة مالية أو إفلاس في عائلته؟ . . لطالما أحست أنه يتمتع بخلفية مميزة . . إذن، إلى أي درجة سيرحب بظهورها على خشبة المسرح؟

سمعت صوت الدوش يتوقف . . ثم ارتفع صوت تشارلز وهو يغني في الحمام . بسرعة، وضعت المجلات في أسفل الكومة، وبدأت ترتب له سريره . . أرادت أن تصرف عنها هذه الأفكار بأي ثمن . حين برز تشارلز من الحمام وشعره مبتل، كانت في المطبخ تحضر القهوة .

تقدّم من ورائها وطبع قبلة على خدها .

ـ صباح الخير أيتها الرائعة . . فراشي مرتب، القهوة على النار . . أنت سيدة منزل رائعة .

تمكنت لورا من التماسك حين لمستها شفتاه . لكن جسدها تصلب، وبدا صوتها أكثر ارتفاعاً وهي ترد :

ـ حضر أنت الفطائر المحلاة . . يجب أن أعود إلى الكوخ . . ألم أقل لك إنني أنهيت دراسة الكيمياء العضوية؟ أريد أن أبدأ بدراسة الطبيعيات هنا، قبل أن أغادر .

تمتم : «بيننا كثير من الكيمياء» .

لف ذراعيه حولها، ثم أرجعها إلى الوراء على صدره .

ـ اتركي الفناجين لورا . . ودعيني أعانقك . أنا لم أعانقك منذ الأمس .

قالت ساخرة : «يا مسكين . . » .

ـ هل من خطب؟

ـ لا . . ماذا يمكن أن يكون؟

ـ انظري إلي . .

أدارها بين ذراعيه، مقطب الجبين: «ما بك لورا؟».

لقد استهلت علاقتها معه بخداع صغير.. عن وضعها المالي أولاً.. لكنها تعرف أن الخدعة تجر الأخرى.. أراحت رأسها على عنقه، لتتجنب عينيه، وقالت:

ـ أنا متعبة.. هذا كل شيء.. لم أنم كثيراً ليلة أمس.

قال باكتئاب: «أتساءل أحياناً ماذا نعرف عن بعضنا بعضاً.. كلانا يخفي أسراره، وكلانا يعرف هذا.. فمن سيكون الأول في الإفشاء بها لورا؟ أنت أم أنا؟ المشكلة أنني أنتظرك وأنت تنتظرينني».

كان يتلفظ بالحقيقة المؤلمة.. قل لي أحبك وقل لي إنك لم تقرأ المجلة.. أزاحت يديه عن خصرها، وصبت القهوة.. ثم قالت بثقة هي أبعد ما تشعر به: «أعتقد أن كل شيء سيجد طريقه إلى الحل».

أضاف ملعقة السكر المعتادة. وأخذ يحركها بسهو، ثم قال: «أجل».

لكنه لم يبدُ مقتنعاً.

اكتشفت، مع الوقت، أنه طباخ ماهر.. يعد وجبات لذيذة وسهلة الهضم. فتركته يصنع الفطائر المحلاة.. صبت فنجاناً آخر من القهوة، من دون أن تترك القلق يؤثر في شهيتها.. واستمرت في التحدث عن المتاعب التي تكبدتها مع المراهقين الثلاثة، من دون أن تحاول خداع تشارلز.. حين استعدت للرحيل، قال أخيراً: «هذا غطاء مزيف رائع.. لورا».

نظرت إليه بحدة: «هل أضجرتك بحديثي؟».

ـ لم تضجريني حتى الآن.

قالت متوترة: «أوه.. اذهب إلى الجحيم إذن».

قال دون مقدمات: «هذا خيار.. أو أننا نستطيع الذهاب إلى لويسبرغ بدلاً من ذلك.. إنه مكان تنجلي فيه العواطف في الضباب».

ـ أتعني إلى القلعة؟

ـ يمكن أن نسير على الشاطىء.. الأمواج هناك مؤثرة دائماً.

ـ يجب أن أدرس.

ـ سأمر لاصطحابك في الساعة الثانية. وهذا يمنحك ثلاث ساعات..

حين تعلو وجهه هذه الابتسامة الرائعة تفقد كل قدرة على مقاومته.. أرجوك يا ربي ألا يعرف بشأن المليون دولار.

ـ حسن جداً.. في الساعة الثانية إذن.

لكن حياة التوالد والبنية الهندسية للبروتوزون الميكروسكوبي، فشلت في الحفاظ على اهتمام لورا.. حين وصل تشارلز، سرت سروراً عظيماً، وقررت أن تبعد صورة المجلة عن فكرها.. فكرت ثانية، تذكرت أن المجلة كانت في حالة جيدة، مما يعني أن تشارلز لم يتصفحها بعد.. على أي حال، لو رأى الصورة، لسألها عن الأمر.. ألن يفعل؟

كان الضباب يكتنف بلدة لويسبورغ الصغيرة، ورائحة السمك تتغلغل بقوة في الأنوف.

قال تشارلز بابتهاج:

ـ لم يتغير شيء.. في القرن الثامن عشر، كانوا يجففون سمك القد على منصات في الشمس.. وقد اعتبر سمك القد ضرورة مطلقة في البلدان الكاثوليكية.. وبما أننا نتحدث عن الضروريات، يجب أن أتوقف لأملأ خزان الوقود.

توقف في محطة وقود، وأخرج محفظته ليسحب منها ورقتين نقديتين.

ـ هذا يكفي.. فأنا مضطر إلى تأمين ضروريات أخرى.

ثم اتجه إلى المغاسل وهو يصفر فرحاً.

ابتسمت لورا وهي تراه يبتعد ببنطلونه الأزرق، والسترة الصفراء الواقية من الريح.. بدا عادياً جداً.. لا رمزاً للرومانسية، ولا محطماً للقلوب.. لماذا تنجذب إليه هكذا؟ لماذا تريد أن تصرخ به: أحبك؟ لماذا ترغب أن تهمس بالكلمة ذاتها على الدوام؟

أريد منه أن يكون سعيداً.. أريد منه أن يثق بي.. أريد منه أن يزيل كل الحواجز.. أريد منه أن يحبني.

التقطت المحفظة حين أقفل عامل المحطة غطاء المحرك.

ـ لا ينقص الخزان سوى ربع ليتر.. والحساب ستة وعشرون دولاراً سيدتي.

أعطته ثلاثين دولاراً.. فجأة، انفتحت طبقة داخلية في المحفظة، لتكشف عن رخصة قيادة، لُفّت في غطاء بلاستيكي شفاف.. كانت الأحرف السوداء المطبوعة تقول: تشارلز ريتشارد تورندايك. وعادت تفكّر بسرعة في حقيبة الحلاقة.. (ت ـ ر ـ ت). إذاً، إنه لا يدعى تشارلز ريتشاردز.. بل تشارلز ريتشارد تورندايك.

كرر العامل كلامه: «الباقي سيدتي.. هل أنت بخير؟».

نظرت إليه لورا، ثم أخذت منه المال، ودسته في المحفظة:

ـ أجل.. أجل.. أنا بخير.. شكراً.

حين رأت تشارلز قادماً من زاوية المبنى، أقفلت المحفظة، وأخفت الرخصة عن الأنظار ووضعتها على مقعده، وكأنها تحرق أصابعها.

توقف تشارلز ليتحدث مع عامل المحطة، الذي أبدى إعجابه بالجيب. حاولت لورا أن تتنفس بعمق وبطء. مع ذلك، ظلت تشعر بالغثيان. لم يستخدم تشارلز اسمه الكامل منذ التقت به.. ولكن، لماذا؟ ماذا فعل بحق الله، حتى يخبىء عنها هويته الحقيقية؟ تورندايك.. حاولت أن تتذكر إن قرأت الاسم في مقالة صحفية أو مجلة، أو سمعته على الراديو.. لكنها لم تتذكر شيئاً.. لم يكن الاسم يعني لها شيئاً.. على الأقل، ليس مجرماً قاتلاً.. وإلا لسمعت عنه.. لكن الفكرة لم ترحها إطلاقاً.

أحست ببرودة يديها.. فدسّتهما في جيبي الجينز.. ذهب الرجلان إلى مؤخرة السيارة.. فسمعتهما يتحدثان، لكنها لم تتمكن من تمييز الكلمات.. جربت أن تبتسم، لكن عضلات وجهها بقيت كالخشب.

ثم تنبهت إليهما، وقد كادا يفرغان من الكلام.. فسحبت نفساً عميقاً آخر.. وحاولت أن ترخي قبضتيها المشدودتين.. ثم فتح تشارلز الباب، وهو يضحك لنكتة العامل.. بدا لها شاباً خالياً من الهموم. هنا، ابتسم لها.. فأطلقت الابتسامة التي تمرنت عليها، ودهشت لأنه لم يلاحظ شيئاً.. دس المحفظة في جيبه الخلفي وربط حزام مقعده:

ـ هل أزعجك تأخري.. هذا الشاب مهتم بشراء سيارة مثل هذه، وأراد أن يعرف رأيي بها.

ـ لا.. لم أنزعج.

عادا إلى الطريق العام، ثم انعطفا إلى اليسار على الخط الساحلي.. واختفى آخر البيوت.. ظهر البحر، ليلف برطوبته أشجار الصنوبر. ثم هبّت ريح المحيط لتدفع الأشجار وتحاول أن تثني رؤوسها العالية.. أما النباتات الطويلة البيضاء الزهر فاصطفت كالجنود وسط الأعشاب.

قال تشارلز: «يجب أن نوقف السيارة وأن نذهب إلى القلعة بواسطة الحافلة.. حاولي أن تتجنبي السياج، وتصوريها كما كانت».

أخذت لورا الكتيب من مركز المعلومات وألقت نظرة خاطفة على تاريخ الحصن. لقد ازدهرت القلعة خلال أربعين سنة، ثم حوصرت مرتين وسقطت في المرتين.. عام ١٧٦٠، نسفها البريطانيون ودمروها تماماً، فبقيت مدفونة لأكثر من مئتي سنة، وغطى العشب آثارها حتى أصبحت مرعى للغنم والغزلان.. لكنها كانت في أيام مجدها مركزاً للتجارة وصيد الأسماك، وقاعدة بحرية عسكرية.

غرقت لورا في الكتيب، وهي تقصد ألاّ تكلّم تشارلز.. عكست القراءة المنظر حولها تماماً.. حين تابعت الحافلة سيرها، رأت أمامها الجسر المتحرك في «بورت دوفين» يحيط به حراس ببزات رسمية.. فاقشعر بدنها رجفة وإثارة.

ولم تخيب القلعة آمالها، فتجولت مسحورة في الشوارع.. وفي هذا الوقت كان تشارلز يدلها على الأماكن المهمة. في الأعلى، أبصرت برجاً جميلاً فيه ساعة تحسب دقائق القرن الحديث.. منزل المهندس الكبير، والمخبز ومنزل الحرس، والفندق المشرف على الساحل، والحدائق الهادئة الرسمية. ثم مرّ دجاج يحفر الأرض بمخالبه، يقاقي حول منزل صياد. وظهرت بقرة من وراء الثكنات.. بعدئذٍ مرّ الحرس وهم يدقون.

سأل تشارلز لورا إن كانت تريد الدخول إلى المباني.. لكنها رفضت. أرادت أن تستمتع بجو البلدة وتتأمل مبانيها وضبابها، وبحرها.. مرّت بها نساء

مرتديات تنورات طويلة، ورجال يرتدون أثواباً فضفاضة.. وأرادت أن ترى السفينة الحربية الفرنسية التي ترسو في الميناء، وأن تسمع طقطقة سلاسلها.. فأخذا يسيران حتى بلغا نهاية البلدة ووصلا إلى سهل مليء بالعشب.. تطلعت إلى الخلف، ورأت ما رأته مختلف العيون منذ مئتي سنة وحتى الآن! السطوح ذات الزوايا الحادة، البيوت المجتمعة، الأسوار والمتاريس التي أعدت لإبعاد الغزاة. هناك، في هذه البقعة من الأرض، اجتمع شمل صغير من البشر وفدوا من بلاد بعيدة.

سارت إلى جانب تشارلز بصمت في ممر ترابي مستقيم. إنهما الآن في البرية، قرب المستنقعات، الأرض التي لا يملكها أحد.. حيث يرعد الموج ويصيح النورس تعبيراً عن وحدته في جهات الريح الأربع.

مرة أخرى، استدارت لورا لتواجه الحصن. لكنه كان قد اختفى، وكأنه لم يكن قط. ابتلعه الضباب. أحست بالهواء المبلل يخترق ثيابها، وارتجفت من شعور هو أكثر من البرد.

قال تشارلز بنعومة: «أنت تشعرين بهذا أيضاً».

نظرت إليه بصمت.. لترى أمامها رجلاً أشقر طويل القامة، كانت تعرفه كما تعرف نفسها تقريباً.. مع ذلك، فهاتان العينان الرماديتان تفوقان الضباب ومادية.

وتابع: «الإحساس بالزوال.. بكفاح البشرية الذي لا يوصل إلى سوى العدم.. وبالحروب التي لا تعني لنا اليوم شيئاً، لأنها استبدلت بحروب من نوع جديد.. تذكرنا بأناس كانوا يأكلون ويشربون ويحبون، والآن يستلقون منسيين في قبورهم».

عرفت بالضبط ما يعني.. لكن المضحك المبكي أنها متناغمة روحياً مع رجل كذب عليها بشأن هويته. إنه شيء أساسي. ومع ذلك، تافه وبسيط. ووجدت أن الكلام لا يساوي شيئاً أمام جمالية اللحظة.

ـ هل ترغبين في السير قرب السور قليلاً؟ قد يحالفنا الحظ ونجد تحفة فنية.. أو قذيفة مدفع.

عرفت أنه يريد السير قرب السور.. وأنه يشعر بإثارة صبيانية ويود لو يعثر على ذكرى من الماضي.. أحست بالألم يطغى عليها. إنها تحبه كثيراً.. ونظرت من فوق كتفها لتقول: «اذهب أنت.. أعتقد أنني أفضل السير حتى الشاطىء.. سألقاك هنا بعد نصف ساعة».

ومن دون أن تعطيه فرصة للجدال، استدارت لتقفز فوق العشب، نحو البحر. أخفى الضباب الصخور، كما أخفى الدموع التي تراكمت في عينيها. لم يلحق تشارلز بها.. حين خاطرت بنظرة إلى الخلف، كانت قد وصلت إلى الحد الفاصل بين اليابسة والماء.. رأته يتجه نحو السور وأصبحت سترته الصفراء الواقية من الريح بقعة لون لماعة في محيط من اللون الرمادي والأخضر.

رفعت لورا قبعتها الواقية من الريح. وسارت بمحاذاة الشاطىء.. يجب أن تخبره بشعورها. هكذا يملي عليها التعقل.. قد تجد تفسيراً بسيطاً مع أنها لا تتصور تفسيراً قد يمحو الخيانة المعذبة والغضب العميق.. لكنها عرفت في الوقت عينه، أنها لن تقول له شيئاً.. صحيح أنها لا تعتقد أنها خيانة، لكن في هذه المسألة، كان خوفها من المجهول يشلها عن الحركة.

في الحقيقة، لا تستطيع إلا شيئاً واحداً. ستذهب حين تعود إلى غرانتهام، إلى مكتبة الجامعة وتفتش عن اسم تورندايك في ملفات الصحف. فالاسم لا شك هام جداً لتشارلز ويريد إبقاءه سراً عنها.. وفي الاسم، قد تجد حلاً للغموض.

لكن، لم يحن موعد عودتها بعد.. وبطريقة ما، يجب أن تتصرف في هذه الأثناء بشكل طبيعي مع تشارلز..

تابعت سيرها، وقد انقطعت أنفاسها، وهي تقفز من صخرة إلى أخرى.. أنعشتها رائحة البحر النظيفة الباردة وهدأت من روعها، توقفت لدقيقة، وهي تلهث لتنظر حولها.. إلى يسارها، امتزج الماء الهائج بالضباب الرمادي، أما إلى يمينها، فارتفعت تلال صخرية.. كان أول من حاصر الحصن حفنة مشتتة من الإنكليز الجدد، استخدموا سلاحاً بسيطاً، وجرجروا مدافعهم عبر هذه الصخور.. ثم وصلوا إلى المتاريس، واستولوا على البلدة.. بدا نصراً مذهلاً، ثأروا فيه من تلك القلعة الصخرية التي راح ضحيتها أكثر من تسعماية من

الإنكليز. . كان الأحياء والأموات يستلقون جنباً إلى جنب في الثكنات الباردة.

هزت لورا رأسها. . يكفي تفكيراً بالموتى والدمار. . نظرت إلى ساعتها. . وأدركت أن موعدها مع تشارلز مضى منذ خمس دقائق. . فكرت أن تسلك طريقاً مختصرة عبر الصخور. . لكن تصورت نفسها وحيدة في متاهتها، فلم يرق لها الأمر. هكذا، عادت عبر الخط الساحلي، وهي تسرع الخطى والذنب يتملكها. . لقد وصلت إلى أبعد مما كانت تنوي.

سمعت تشارلز، قبل أن تراه. . كان يصيح باسمها. . طار إليها صوته بشكل مخيف عبر الضباب، وكأنه شبح. . فاستجمعت أنفاسها ونادته: «هنا! من هذه الجهة!».

انتظرت دقيقة فلم تسمع إلاّ الصخور تحتكّ وكأنها العظام، والموج يرعد وكأنه المدافع. لعله ابتعد لعشرين قدماً عنها، وتجاوزها دون أن يراها. . كان الضباب كثيفاً جداً.

صاحت مجدداً: «تشارلز! أين أنت؟».

ـ لورا!

أين هو؟. . أمامها، إلى اليسار؟ لم تستطع أن تحدد. . لم تعرف أي جهة تسلك، فلزمت مكانها وقدماها مركزتان على الصخور. . لا يمكن أن تضيع. . لو لحقت بالخط الساحلي، لوصلت في النهاية إلى القلعة. . لكن ماذا لو مرّ بها تشارلز واتجه إلى الجهة المعاكسة فيبتعد عنها بدلاً من الاقتراب نحوها؟ ماذا لو انزلق فوق الصخور وكسر كاحله؟ ماذا لو سار نحو المستنقع بدلاً من أن يبقى على الشاطىء؟

سحبت نفساً عميقاً، ووضعت يديها حول فمها، ثم صاحت باسمه عالياً قدر ما تستطيع.

تعالى وقع أقدام على الصخور. . لن تدهش لو رأت جندياً غير حليق الذقن، في بزة واسعة رخيصة، يبرز من الضباب. . لكنها، بدلاً من ذلك، رأت سترة صفراء وأربطة زرقاء. . رجل من القرن العشرين بلحمه ودمه، حقيقي، دون أي ريب.

تقدم تشارلز نحوها، ويده في جيبه، وشعره الأسود بللته الرطوبة. . فكرت لورا: يا الله. إنه غاضب. . ولم يدهشها هذا مطلقاً.

لم تترك لها كلماته الأولى مجالاً للشك:

ـ أين كنت بحق الله؟

ـ أسير بمحاذاة الشاطىء، أتأمل البحر.

ـ وفري عليّ التلاعب بالكلام. كان من المفترض أن تعودي منذ نصف ساعة.

ردت بصدق: «أنا آسفة، لقد فقدت الإحساس بالوقت».

ـ ظننتك ضعتِ. . هل تدركين أنك قد تغرقين في هذه المستنقعات من دون أن يجدك أحد؟

قررت ألا تخبره أنها فكرت بسلوك طريق مختصرة فوق الصخور، وردت: «أشار عليّ ذكائي بالبقاء على الشاطىء».

ـ كنت عرضة لتكسري كاحلاً فوق الصخور.

ـ وأنت كذلك تشارلز. . لقد قلت إنني آسفة. . ولن أكرر كلامي.

ـ أنت عنيدة بشكل لعين.

تقدم أكثر. فأرجعت رأسها إلى الوراء. . وقالت ببرود: «كلانا يعرف أنك أضخم مني».

ـ ربما حان الوقت لأثبت هذا.

رأت في عينيه نظرةً، أبعدتها خطوتين إلى الوراء. . لكن كعب حذائها علق في شق بين الصخور. . فحاولت أن تحافظ على توازنها، وانتهى بها الأمر بأن اصطدم ظهرها بصخرة كبيرة. . قالت بغضب: «لست في مزاج لأتحمّل سيطرتك الذكورية. . أحس بالبرد والبلل، وأريد العودة إلى المنزل».

رفعها من دون لباقة، لتقف على قدميها: «لا بأس. . فأنا كنت مستعداً للعودة منذ نصف ساعة. . اتبعيني. . ولأجل الله، لا تتجولي بعيداً».

كانت أصابعه تحفر في معصمها، فقالت بتوتر متشدد: «لو دفعتك إلى البحر، فهل سيعتبرون الحادث انتحاراً مبرراً؟».

لأول مرة ظهر شيء من المرح على وجهه:

- سيعتبرون الحادثة جنوناً مؤقتاً . . لا أمل لك بالنجاح .

- أوه . . جوابك حاضر دائماً! اترك معصمي . . لست طفلة تحرها خلفك . . أنا امرأة راشدة، تمكنت من رعاية نفسي طيلة خمس وعشرين سنة . يبدو أنك تنسى هذا الواقع دائماً .

تجلت التسلية على وجهه .

- يقال إن الشيطان يعتني بنفسه .

- أنت مضحك جداً . . هيا . . تحرك .

انحنى وقبل رأسها، ثم نظر إلى وجهها المحمر غضباً: «تبدين جميلة جداً وأنت غاضبة» .

وترك يدها مديراً ظهره، وسار في الطريق التي قدما منها .

فكرت لورا أن تشتعل غضباً، أو أن تذهب في الاتجاه المعاكس . . لكنها سرعان ما غيرت رأيها حين فكرت بالكوخ، والثياب الجافة، وفنجان الشاي . . سارت خلف تشارلز، وهي تعرف أن غضبها قد غطى على الجرح العميق الذي أحدثه فيها . . أملت ألا تنفجر الآن بالحقيقة، فتخبره باسمه الحقيقي، وبخداعه وكذبه . لكنها افترضت أنها ستواجهه عاجلاً أم آجلاً . . «وآجلاً» بدا لها الخيار الأفضل .

وصلا إلى الفسحة الخضراء، وسارا في الطريق الترابية، ثم عادا إلى حرم القلعة القديمة . . ثم استقلت الحافلة مع تشارلز حتى وصلا فوق التلة إلى السيارة . . هناك، أصبحت حجارة القلعة سراباً بعيداً .

تململت لورا في مقعد الجيب، وأسندت رأسها إلى زجاج النافذة . . أغمضت عينيها لا من التعب فحسب، بل لأنها لم ترغب في الحديث مع تشارلز . . حين خرجا من بلدة لويسبورغ، كانت قد نامت . . كان نوماً متقطعاً رأت فيه جنوداً يرتدون معاطف رمادية، يرمونها بأرغفة خبز، قاسية مثل كرات المدافع الحديدية .

استيقظت عجلة، ورأت الكوخ أمامها . كوخ حديث عادي لا أثر فيه للماضي ولا للأشباح .

- أوه . . وصلنا .

- هل لي أن أدخل؟

- أفضل ألا تدخل . . فأنا حقاً لا . .

- تركت معطفي هنا منذ يومين . . لو أخذته، لتركتك بسلام . . أنا قادر أن أفهم تلميحاتك لورا .

ترجلت من الجيب وهي تلمح الغضب والألم في عيني تشارلز . . أسرعت تصعد السلم لتفتح الباب . وهنا سمعت رنين الهاتف الحاد .

أحست أنه رن أكثر من مرة . . فركضت عبره إلى غرفة الجلوس . وقد بللت الأرض خلفها، ثم أمسكت السماعة لتقول بأنفاس مقطوعة: «آلو؟» .

- لورا! أنا كيث، كنت أحاول الاتصال بك طوال بعد الظهر .

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- لا بأس . . كل شيء على ما يرام . . لكن سوآن أصيبت بالأنفلونزا، وداريل أدخل إلى المستشفى بعد ظهر اليوم . . وهم يستأصلون له الزائدة الدودية .

- أتعني أن العملية تجري الآن؟

- أجل . . يقول الأطباء أن لا داعي للقلق، فهي لم تنفجر، إنها جراحة روتينية . لكنني أعرف أنك ترغبين أن تعرفي .

- أوه . . أجل! وسوآن؟

- أصابتها انفلونزا قديمة الطراز في معدتها . . الطفلة المسكينة . . تبدو كالشبح، لكنني في المنزل إلى جانبها . . لاحقاً، ستأتي جابن لتبقى معها، بينما أذهب أنا إلى المستشفى . . لقد سافرت مدبرة المنزل إلى بوسطن منذ يومين، لذا استقالت .

- سأعود في الحال .

- لست مضطرة لورا .

- بل أنا مضطرة . . يجب أن أرى داريل . . لم يكن هناك من إنذار مسبق، أليس كذلك كيث؟

- أنت تعرفين داريل . . إنه آخر من يعترف بالألم . . لاحظت أنه مرهق قليلاً في الأيام الماضية، لكنني عزوت هذا لعمله الجديد . فساعات عمله جنونية، إنه

يبدأ في الخامسة صباحاً.

ـ اسمع سأنطلق في الحال.. وربما أزور المستشفى مباشرة قبل الذهاب إلى المنزل. فإذا رأيت دارين، فقل له إنني قادمة.. وأبلغه حبي.

ـ تودي بحذر.. الوقت متأخر.

ـ سأفعل.. أعدك.. وأبلغ حبي لسوآن كذلك.

ـ حسناً جداً لورا.. سأراك في ما بعد.

ـ إلى اللقاء.

وضعت السماعة مكانها، ثم نظرت إلى الحائط وهي لا تراه.

ـ ما الخطب لورا؟

نسيت وجود تشارلز تماماً.

ـ التهبت الزائدة الدودية عند دارين، وهم يجرون له جراحة الآن.. أما سوآن فأصيبت بانفلونزا.. أخبرني كيث بذلك الآن.

نظرت حولها دون وعي: «سأعود إلى البلدة.. يجب أن أوضب حقائبي».

ـ وهل ستغادرين الآن؟

ـ أنا مضطرة. إذ لا يمكن أن أترك كيث وحده، إنه يعمل بوظيفتين.. أوه.. يا إلهي.. من أين أبدأ؟

ـ سأساعدك.. أين حقائبك؟

تنقلت بين غرفة وأخرى، ولملمت كل ما يخصها، ثم رمته في أقرب الحقائب. في وقت قصير مذهل كانت قد رتبت كل شيء.. ثم عرّت السرير وقالت بعجز: «ماذا أفعل بالشراشف والمناشف؟ لا أريد أن أتركها من دون تنظيف.. والبراد.. إنه مليء بالطعام».

ـ لا تقلقي.. حين أعود، أنظف البراد وآخذ المغارش إلى المصبغة.

ـ حقاً؟ هكذا تكون المساعدة.

ثم غاصت بقية كلماته في ذهنها، فنظرت إليه بارتباك: «ماذا تعني.. حين تعود؟».

نظر تشارلز إليها: «أنا قادم معك لورا.. وهل ظننت أنني سأتركك

تسافرين في مثل هذا الوقت وحدك؟ سنستقل سيارتك بالطبع.. وسأعود بالطائرة..».

شهقت: «لا.. لا.. لا يمكن أن تأتي معي».

لو ذهب معها، لعرف بأمر المليون دولار. وتذكرت المجلة، ثم فكرت: إلا إن عرف مسبقاً..

ـ لورا.. لأجل الله..

صاحت بجنون: «لا يمكنك هذا!».

جاهد ليسيطر على نفسه.

ـ اسمعي.. ما المشكلة إن ذهبت معك.

ـ تشارلز.. أرجوك، لا تصعب الأمور علي.. سأكون على ما يرام. وغداً أتصل بك لأعلمك بكل شيء.

أصيب تشارلز بالسخط حين سمع قرارها، فصرخ:

ـ هل تخجلين بي؟ تخجلين من علاقتنا؟ أتريدين إبعادي عن نظر عائلتك؟

ـ لا تكن سخيفاً! ولماذا أخجل؟

ـ لا أعرف.. أخبريني أنت.

قامت بجهد أخير: «تشارلز.. أنت تبالغ في ردة فعلك.. أنا سائقة ماهرة تقدر على السفر وحدها.. لا داعي أن ترافقني، فالمطار يبعد مئة ميل عن مكان سكننا.. والمسألة ليست بسيطة».

سألها بصوت هادىء خطر: «وأين تسكنين لورا؟ لِمَ لا تفصحين لي؟ ماذا تخبئين؟».

خطرت لها فكرة في داخلها، وقالت بعنف: «على الأقل، أخبرتك باسمي الحقيقي».

ضاقت عيناه: «ماذا تعنين؟».

ـ أنا لا أستخدم اسماً مزيفاً.. اسمي هو اسمي الحقيقي. ماذا تخبىء أنت تشارلز ريتشارد تورندايك؟

شحب وجهه، وأمسك بكمها: «منذ متى تعرفين هذا؟».

ـ إذن أنت لا تنكر؟

ظلت تأمل أن يعطيها تفسيراً صغيراً بسيطاً، وألا يكون قد خدعها بكامل إرادته: «ومنذ متى تعرفين هذا؟».

رفعت ذقنها باستعلاء، وهي لا تقوى على النظر إلى عينيه الحادتين كالفولاذ المشحوذ: «ولماذا يهمك منذ متى أعرف؟ لقد خدعتني منذ البداية.. حين قدمت نفسك على أنك تشارلز ريتشاردز.. لماذا تشارلز؟ لماذا؟».

قال بابتسامة غضب: «مات الشاه.. قولي لي لماذا لا أستطيع الذهاب معك إلى بلدتك، وسأقول لك لماذا أخفيت اسمي الحقيقي..».

ـ مات الشاه.. حقاً.

ـ ألم تتعرفي على الاسم؟

ـ لا.. ولماذا أتعرف إليه؟

أجابها بسؤال آخر، والعواطف المكبوتة تكتنف صوته الأجش.

ـ إذن، ماذا نفعل الآن؟ أنقبل بعضنا قبلة الوداع ونتبادل الشكر على هذه الأيام الرائعة؟

ـ قلت إنني سأتصل غداً.

ترك ذراعها.

ـ أهكذا سارت الأمور بالنسبة لك لورا؟ مجرد علاقة صيف، فترة عابرة سنذكرينها بابتسامة.. ثم تنسينها في النهاية؟

ماذا يفترض أن تقول؟ أحبك، قلباً وروحاً، بطريقة لم أحب بها بارت.. وإنني لن أنساك أبداً.. قالت بابتسامة مغتصبة:

ـ كيف أجيب عن هذا الآن؟ أليس من الأفضل أن تطرح علي السؤال بعد ستة أشهر؟

ـ يجب أن أعود إلى تورنتو في شهر أيلول.

هذه ورطة.. طريق مسدود. هل يهم أي كلمة يستخدمان لوصف الموقف؟ إنها نهاية غامضة.. وداع يكتنفه الخوف.

وتوتر وجهها، ثم قالت: «تشارلز.. يجب أن أذهب.. أنا قلقة على دارين.

وسأقدر حقاً لو أنك نظفت الكوخ كما استلمته.. ستكون شقيقة جاين هنا في شهر آب.. ولسوف أكون ممتنة لو ساعدتني في حمل حقائبي إلى السيارة.. يبدو أن معي أغراضاً كثيرة».

من دون كلمة، انحنى ليلتقط أقرب حقيبة.. ألقت لورا نظرة أخيرة على الكوخ.

استغرق نقل أغراضها إلى السيارة خمس دقائق. أقفل تشارلز غطاء الصندوق ومرر لها المفتاح. كان كل عصب فيها يصرخ توتراً.. لكنها أخذت المفتاح منه، وهي تحاول ألا تلامسه. ثم تحركت نحو باب السائق، وقالت: «أعد أن أتصل بك غداً».

لكن، قبل أن تدخل، وضع يده على كتفها.. فأدارت رأسها. وأحست بقلبها يذوب للنظرة التي في عينيه. فجأة، احتواها بين ذراعيه.. وبضمة واحدة، عبر عن حبه وشوقه وغضبه وألمه لفراقهما.

حين تركها، كانت ترتجف لا تستطيع أن تتكلم.. تلاعبت بمقبض الباب مرتجفة، وصعدت إلى السيارة، وأغلق تشارلز لها الباب. أدارت المحرك، وتراجعت، ثم قادت إلى الأمام مبتعدة.. من دون أن تلقي نظرة إلى الخلف.

* * *

١٠ ـ أسرار الأمس.. ضاعت

كان الليل يوشك على الانتصاف، حين وصلت لورا إلى غرانتهام. استطاعت أن تتماسك حتى الآن بفضل القهوة، وأفكارها المتراكمة. فكرت للحظات أن تذهب مباشرة إلى البيت، وتتصل بالمستشفى لتسأل عن حالة دارين. ثم تراه في اليوم التالي حين يكون أقوى.

لكن ضميرها، أو عنادها، منعها من سلوك الطريق السهلة.. مرت بالمنزل، ولاحظت أن الأنوار لا تزال مضاءة في الشرفة الأمامية والمطبخ.. بعد ثلاثة منعطفات، انعطفت يساراً إلى موقف سيارات المستشفى. أوقفت سيارتها ودخلت من الباب الرئيسي. كانت ساعات الزيارة قد انتهت منذ وقت طويل، لكن الممرضات كن يعرفنها. بعد دقائق، كانت تتحدث إلى الممرضة المسؤولة عن القسم الجراحي، وهي صديقة جابن.

ـ دارين بخير.. ما من تعقيدات. إنه قوي كالثور، وسيستعيد عافيته في وقت قصير.. أتريدين رؤيته؟ علي أن أتفقد ضغط دمه على أي حال.

كان هناك رجلان آخران في الغرفة، كلاهما أكبر سناً من دارين.. صعقت لورا حين رأته. كان يبدو صغيراً وضعيفاً، ورموشه السوداء تلامس خديه، وهو غارق في نوم عميق.

عندما لفت الممرضة جهاز الضغط حول ذراعه، ارتجفت رموشه وفتح عينيه. رفرفهما عدة مرات، وهو يقاوم المخدر الذي يخفف الألم.. انهت الممرضة عملها، وكتبت الأرقام في دفتر ملاحظاتها، ثم قالت: «لقد جاء أحدهم ليراك دارين».

والتفتت إلى لورا: «لا تطيلي البقاء عزيزتي».

ـ لن أتأخر.

استدارت إلى دارين الذي كان ينظر إليها بعبوس حائر. عرفته منذ أربع سنوات، ولم تقترب منه كثيراً، لأنه كان يبعدها في كل مناسبة.. مع ذلك، حين رأته الآن مستلقياً في سرير المستشفى الضيق، أحست بحبها الجارف له وشكرت الله لأنه سليم معافى. فجأة، ترقرقت الدموع في عينيها.. كان اليوم طويلاً ومرهقاً.. انحنت لتقبل خده باندفاع، ثم همست: «أنا سعيدة أنك بخير».

تمتم وهو لا يزال مقطباً: «هل قدت السيارة من كاب بريتون؟».

ـ أجل.. لقد اتصل بي كيث بعد الظهر، وغادرت في الحال.

ـ لكنك ما زلت في عطلة.

لم تعرف هل كان مسروراً برؤيتها أم لا. فكرت أن تخبره أنها كانت تستعد للعودة على أي حال.. ثم تخلت عن هذا لتنطق بالحقيقة: «كان علي أن آتي.. لقد قلقت عليك».

ضاقت عيناه، وأخذ يتلعثم بالكلام: «كنت أعرف أنك ستأتين من أجل كيث وسوآن. لكنني لم أفكر قط أنك قد تأتين من أجلي».

أمسكت يده، فبقيت أصابعه مسترخية في يدها: «بالطبع سأفعل.. أنا أحبك دارين.. بكل تأكيد سآتي حين تكون مريضاً».

أحست بأصابعه تتحرك في قبضتها برقة تشبه رقة مولود جديد.. لكن المخدر كان يؤثر على وعيه.. وأخذ يتمتم: «أخشى أن أنفصـ... عملي.. فهلاّ ذهبتِ.. لرؤيتهم.. لورا؟».

ضغطت على يده: سأذهب بالتأكيد. سأذهب إليهم في الصباح الباكر.

ـ شكراً.

اسدل رموشه على خديه، ومنحها ابتسامة ضبابية: «شكراً لورا.. أنا مسرور لمجيئك».

لم تتخيل أنها قد تسمع منه هذه الكلمات يوماً. كان هذا اعترافاً كبيراً من دارين.. ومن دون خجل، تركت لورا دموعها تنهمر على خديها، وراحت

تتلمس يده القاسية، ولكن عمق أنفاسه أشار إلى أنه خلد إلى النوم. فكرت في أخيها جايمس.. لقد أهمل ابنه الأكبر لصالح الابن الأذكى، كيث، وها هي اليوم تجني الحصاد المرّ من قسوة جايمس.. لقد رفضها دارين، كما رفض نفسه. وحاربها بالطريقة الوحيدة التي يعرفها.. لكنه الليلة خرق التوتر القائم في علاقتهما. كان اختراقاً بسيطاً.. لكنه اختراق على أي حال.

تركت يد دارين، بلطف شديد، وتسللت إلى خارج الغرفة، ثم لوحت لصديقة جاين التي انشغلت في الطرف الآخر من الممر.. كان جو الليل بارداً رطباً. سحبت بضع أنفاس عميقة، وقد غمرها السكون المطبق.. كل سكان غرانتهام في الفراش الآن.. لقد أمضت أربع سنوات في هذه البلدة، وستقضي ست سنوات أخرى.. وقفت بهدوء أمام سيارتها، وبدأت تتفهم كيف أثرت فيها هذه السنوات الأربع بعمق، بكل محاسنها ومساوئها، بكل الحزن والفرح اللذين شعرت بهما في رعاية ثلاثة صغار، انتقلوا إلى الاستقلال والنضوج. كانت أحياناً تلوم القدر الذي جاء بها إلى هذه البلدة الصغيرة المملة، البعيدة عن المدينة وعن الطلاب الذين تحبهم.. لكنها أدركت الآن، وبتواضع، أنها ستبرع كطبيبة بسبب سنوات الأمومة البديلة. ستكون ألطف وأكثر تساهلاً، أكثر جداً.. وبيطء، قادت سيارتها نحو المنزل.

كان كيث لا يزال صاحياً. جلس وقدماه على طاولة المطبخ، وفي يده صحيفة وفنجان من الشاي القاتم.. تساقط شعاع من النور فوق رأسه فحوّل شعره إلى لهب ناريّ.. حين رأته من شق الباب، تذكرت شعر آني الاصطناعي.. ما إن سمعها تدخل، حتى رمى بالجريدة أرضاً وهرع إليها.

ـ لورا! بدأت أتساءل هل أبعث فرقة تفتيش عنك.

ضمها ضمة تسحق العظام، ثم نظر إلى وجهها.

ـ هل أنت بخير؟

ابتسمت ابتسامة واهنة: «لقد سر دارين برؤيتي. عرفت أنه كان مسروراً! وأعتقد أن هذا.. أثر بي حقاً.. أنا سعيدة جداً لأنني كنت معكم، أنتم الثلاثة، منذ موت أبيكم. كيث، لقد تعلمت أموراً كثيرة، ما كنت لأتعلمها من كتب

الطب».

لف كيث ذراعيه حولها مجدداً ثم داعب وجهها المغرورق بالدموع بحنو: «حبيبتي لورا.. كنت لطيفة معنا، كلنا.. لقد رأيت دارين وهو ينظر إليك محاولاً أن يفهمك.. لكنه كان عنيداً جداً، فلم يغير تصرفه.. أما سوآن فكانت ستضيع لولاك. لقد اشتاقت إليك فعلاً في هذه الأسابيع الثلاثة».

ـ وأنت؟ ماذا عنك؟

لم تحاول أن تنال إطراء، بل أرادت أن تعرف.

ـ أوه.. هذا أمر سهل.. عدا عن أنك حوّلت هذا المنزل إلى بيت لنا، وأعطيتنا الأمان الذي كنا بحاجة إليه.. أؤكد أنني لا أعرف الكثير من النساء اللواتي يخترن العيش مع عائلاتهن ويفعلن ما فعلت.. لقد أعطيتني مثالاً رائعاً.. أنت امرأة تعرف ما تريد، وتعمل كالمجنونة لتحصل عليه. وبسببك أنت، تجرأت وتقدمت إلى مدرسة الغناء.

ـ أوه..

مسحت الدموع عن عينيها: «لكنني لم أفعل شيئاً كيث».

ـ كنت على سجيتك.. والآن سوف أدفعك إلى الفراش.. تبدين نصف ميتة.. اتركي لي المفاتيح وسأدخل حقائبك.. بالمناسبة، سوآن تشعر بالتحسن.. وأظنها خسرت كل ما يمكن أن تخسره.. المسكينة.

خنقت صوتها في صدرها، ثم قالت: «أوه كيث.. ما أجمل أن أعود إلى البيت!».

ـ ما أجمل أن تكوني إلى جانبنا.

كان صوته مخشوشناً.. لعله قرر أن يكتفي بهذا القدر من العواطف.

ـ هيا اذهبي.

ـ أيقظني قبل أن تذهب إلى العمل.. لقد قلت لدارين إنني سأذهب إلى مزرعة الألبان، فهو خائف أن يفقد عمله.

ـ إنه يحب ذلك المكان فعلاً.. لا عمل لديّ في الصباح.. لكنني سأوقظك في التاسعة.. ما رأيك؟ اذهبي إلى النوم الآن لورا.

كانت ابتسامتها أكثر إقناعاً: «شكراً كيث».

جرت نفسها إلى السلم، وأطلت على غرفة سوآن التي بدت وكأنها لم تنظف منذ رحيلها. كانت سوآن ملتفة تحت الغطاء، تغط في النوم. ورغم توبيخ دارين المتكرر، كانت لا تزال تنام وهي تحتضن دمية دب قديمة. وأحست لورا مرة أخرى بغصة في حلقها.

أغلقت باب غرفة سوآن بلطف، ثم ذهبت إلى غرفتها، حيث خلعت ملابسها وتسللت تحت الأغطية.. بدا لها تشارلز بعيداً جداً عنها. فتوقفت عن التفكير لتبعد عنها الألم والذكرى.. ونامت.

في الصباح كانت الطيور صامتة. لا بد أنها أطالت النوم.

سمعت لورا قرعاً على بابها. فتمتمت في الوسادة: «تشارلز؟».

ثم جلست مستوية بسرعة.. إنها ليست في الكوخ. بل هي في بيتها.. قالت بصوت مرتفع: «كيث؟».

وأملت ألا يكون قد سمع الاسم الآخر الذي يكشف له عن خفايا كثيرة.

ـ إنها الثامنة والنصف لورا.. أعددت القهوة.

ـ سأنزل حالاً.. شكراً.

كانت حقائبها مصفوفة أسفل السرير.. فنهضت بانتباه ثم تقدمت إلى النافذة، وفتحت الستائر.

تقع غرفتها في مؤخرة المنزل حيث يمتد البستان صفوفاً متوازية على المنحدر.. كانت ثمار التفاح قد أصبحت أكبر حجماً خلال غيابها. كما تصاعدت رائحة العشب المجزوز حديثاً.. إنها في بيتها. أغمضت عينيها واحتضنت جسمها بذراعيها، تتذكر تشارلز. تساءلت كيف عساها تشعر أنها في بيتها فعلاً من دونه.. يجب أن تتصل به هذا الصباح، مع أنها لا تعرف ماذا ستقول.

لم تخرج من حقائبها، إلا حاجياتها الأساسية.. استحمت ثم ارتدت بلوزة وبنطلوناً أحمر، ثياباً لم يرها تشارلز من قبل، ثياباً ليس فيها عبق الذكريات. ثم نزلت راكضة. كانت قهوة كيث قوية كالشاي الذي يحضره، فأضافت إليها الكثير

من الحليب والسكر.. وفكرت في الملاعق الثلاث التي يضيفها تشارلز عادة، وقالت بإشراق: «أتريد المزيد من التوست؟».

ربت كيث على بطنه النحيل: «لا.. شكراً.. لا أريد أن أصبح بديناً.. ما زالت سوآن نائمة.. أليس كذلك؟».

ـ أجل.. أفكر أن أتركها نائمة.. سأذهب إلى المزرعة ثم إلى المستشفى، وأراها حين أعود.

دهنت التوست بالزبدة وأضافت إليه مربى الفريز الذي تعده بنفسها.

ـ قل لي كيف أصل إلى المزرعة.

كانت مزرعة الألبان في أسفل الجبل الجنوبي.. تحدثت لورا مع مالك المزرعة، بيتر فانزوست وهو هولندي ضخم، بطيء الحركة، كان يصلح جراراً متوقفاً في إحدى السقائف.. انتظرت حتى اعتادت عيناها على الظل، ثم قالت: «سيد فانزوست؟».

وضع من يده مفتاحاً كبيراً ومسح يديه بقطعة قماش.

ـ نعم؟

ـ أنا عمة دارين والكر، لورا والكر.

ارتسمت ابتسامة على وجهه: «عمة.. تبدين كشقيقته».

تجاوزت التعليق وخفاياه: «طلب مني دارين أن أراك.. إنه قلق على عمله».

ـ قلق؟ لكنني اتصلت بالمستشفى وقالوا لي إنه سيعود إلى المنزل سريعاً.

ـ هذا صحيح.. لكنه لن يتمكن من القيام بأعمال شاقة لعدة أسابيع.

ابتسم لها بيتر فانزوست مجدداً: «أتفهم ذلك».

كان يشبه الدب الذي يلازم سوآن في سريرها.

وأكملت لورا: «دارين خائف أن تستبدله بعامل آخر».

ـ سيقوم اثنان من أبنائي، وابن الجيران، بالعمل الإضافي. لكن دارين سيعود مع حلول أيلول. أليس كذلك؟

ـ أعتقد هذا.. أتعني أنك ستستبقيه؟

قال بصبر: «هذا ما أقوله لك.. إنه رائع مع الحيوانات.. وهو يعمل

بجهد، ويتعلم بسرعة. وسأنتظر عودته بفارغ الصبر».

ابتسمت له بإشراق: «شكراً لك.. سيكون مسروراً لسماع هذا. أعرف أنه يحب هذا العمل».

قال المزارع: «إذن كلنا مسرورون.. قولي له أن يزورنا في أي وقت».

بعد ما ودعته لورا، اتجهت إلى المستشفى.

كان دارين جالساً في سريره.. بدا شاحباً، مثقل العينين، وأخذ ينظر إليها بتعب، وكأنه لا يذكر شيئاً عن حديثهما في منتصف الليل.

قالت.. وهي تحاول أن تبدو متعاطفة من دون مبالغة: «مرحباً دارين.. أتشعر بالألم؟».

- أجل.. لا أدري أيهما أسوأ، الألم أو المخدر. أحدهما يؤلمني والآخر يصيبني بالدوار.. هل ذهبت إلى المزرعة؟

- أجل.. وهو يتوقع عودتك في أيلول، سيعمل ولداه بدلاً عنك في هذه الأثناء.. يقول إنك لطيف مع الحيوانات، وتعمل جاهداً وتتعلم بسرعة.

تفاجأت أنه يكاد يحمر خجلاً: «أوه.. هذا جيد».

أضافت بمكر: «والبقرات اشتاقت إليك».

دمدم: «إن حبي ينبع من هنا لورا!»

لكنها كانت دمدمة خفيفة الظل، وعرفت أنه يتذكر كل شيء عن ليلة أمس.

مالت إلى الأمام: «دارين.. أثناء عطلتي، فكرت باستراتيجية مالية. لقد خصصت مالاً لسوآن كي تستخدمه في دروس التمريض، ولكيث في دروس الغناء، وبالطبع خصصت مبلغاً مماثلاً لك.. قد ترغب في إنشاء مصنع ألبان خاص بك».

- ثمة أرض معروضة للبيع في مكان لا يبعد كثيراً عن مزرعة بيتر.

- إذن، لقد فكرت في هذا.

- أريد الذهاب إلى كلية الزراعة أولاً.. ولكنني لست أدري أيهما أفضل.. أن أتعلم من الكتب أم من العمل؟ فأنا لم أنجح قط في المدرسة.

- ولم تتلق التشجيع يوماً.. دارين.

نظر إليها مباشرة.. لطالما حكم عليه جايمس بأنه غبي العائلة.

- أعتقد أنك على صواب.

- أعرف أنني على صواب.. أردت فقط أن تعرف أن المال متوفر.

أخذ يملس أطراف الفراش: «شكراً لورا.. لم أكن لطيفاً معك عندما ربحت المال».

- لم أكن أعرف ماذا أفعل به.. أظن أنني ما زلت أجهل ذلك.

لم تخبر تشارلز أنها امرأة ثرية، لأنها لم تثق به كثيراً. افترضت أنه مثل بارت، يدفعه إغراء المال إلى الزواج بها.

وأكملت: «لكن، لو وزعت المال، لاستطعت أن أحقق الكثير. هذا إلى أنني لن أقلق بشأن مصاريف كلية الطب. دارين، تبدو متعباً.. أتريد أن أنزل السرير لتستريح؟».

لم يجادلها، فافترضت أنه موافق.. أخفضت له السرير، وسوّت الوسائد.. ثم اقتربت منه بخجل وقبلت خده.

- سأزورك لاحقاً.

رفع يديه ليحييها بارتباك، فإذا بحقنة المصل لا تزال في يده. لن تسمع من دارين كلاماً معسولاً، ولا يمكن أن يكون حساساً ككيث، أو دافىء القلب كسوآن، فهو متحفظ بطبيعته إن لم نقل صارماً. لكن لورا، تعرف، أن الساعات الاثنتي عشرة الأخيرة، غيرت علاقتهما نحو الأفضل..

عادت إلى المنزل ببطء، وسلكت الشارع الرئيسي المظلل بالأشجار، وكانت تارة تلوح للوجوه المألوفة، وتارة تنظر إلى ما حولها بتمعن: الصيدلية التي يملكها زوج جاين، مكتب البريد، المصرف، والكنيسة التي يحتاج برج الجرس فيها إلى الطلاء.. ورأت السيدة مانغ تتحدث باهتمام إلى امرأتين، وتساءلت هل موضوع الحديث يتمحور عنها، لورا، التي رفضت الزواج ببارت.. هذا أمر محتمل.

دخلت إلى الطريق الفرعية للمنزل، وأوقفت السيارة، لتستمتع بأشعة الشمس على وجهها.. ما زالت تشعر بالخجل بعد مسألة بارت.. لكن، لعلها

كانت ضرورية في عملية نضجها وتفكيرها.. واستغربت كيف يمكن للوحدة، أن تولد مشاعر حب مضللة.. لم تعرف إلى أين كادت تودي بها الوحدة، إلا حين تعرّفت إلى تشارلز.. أما أن تفصح له عن حبها.. فهذا أمر آخر..

أطلقت تنهيدة طويلة، وترجلت من السيارة، وثم ركضت إلى المنزل.. كانت سوآن جالسة إلى طاولة المطبخ، مرتدية فستان نوم مورداً جيلاً.. بدت شديدة الشحوب.. أما كيث فالتفّ بمريلة حمراء تعكس لون شعره بقوة. وانشغل بالفرن.. حين رأت سوآن لورا، قفزت نحوها ورمت بذراعيها حول عنقها: «ما أشد سروري بعودتك!».

قال كيث وهو يرش الأعشاب المطيبة فوق البيض: «لا يعجبها طبخي».

ضحكت سوآن: «لقد مرضت ما إن قام هو بطهي العشاء».

رفع كيث ملعقة خشبية في وجهها، فسارعت تقول: «إنها بالتأكيد مصادفة.. لكنني آمل على الأقل أن يحضر لي فنجان شاي لائقاً، لا ذلك السائل الأسود الذي يغلي فوق نار هادئة لمدة نصف ساعة».

قال كيث بمرح: «أرأيت ما أضطر لتحمّله لورا؟ ما رأيك بإضافة رشة ليمون حامض؟».

ارتجفت سوآن: «وما رأيك أن تضع قليلاً من الفلفل الحار؟».

بدأت لورا تضحك: «توقفا عن هذا! أشعر وكأنني لم أبتعد عن المنزل يوماً. سأعدّ لك فنجان شاي بنفسي سوآن.. أخبريني عن حياتك العاطفية».

بدا أن ستيفن يتميز بمختلف الفضائل وليس أقلها أنه سعيد بسوآن بقدر سعادتها به. قالت سوآن حالمة: «إنه رائع لورا.. هذه المرة أنا واقعة في الحب حقاً».

ابتسمت لورا، لطالما سمعت هذا من قبل.. وقدمت فنجان شاي خفيف لابنة أخيها.

ـ أتريدين قطعة توست؟ يجب أن تأكلي شيئاً.

ـ أعتقد أنني سأتناول قطعة توست.. عجباً.. أشعر بالجوع اليوم.. في الأمس، لم أكن قادرة على النظر إلى كوب عصير.

قال كيث: «لم أستطع أن أغني كلمة بالأمس.. وأرجو أن تقدري لي هذا، أختاه».

ـ أوه.. أقدره لك.. أنا..

قرع أحدهم الباب الخلفي.. فحضّرت لورا قطعتي خبز وهي ترجو ألا يكون بارت..

قال كيث: «سأرد عليه».

حين فتح الباب، علا صوت عميق: «هل هذا منزل لورا والكر؟».

أوقعت لورا كيس الخبز من يدها.. هذا ليس بارت.

تمسكت برف المغسلة، وهي تفكر بوضوح شديد: «لن يغمى عليّ.. هذا أمر سخيف.. أمر متخلف جداً».

قال كيث: «هناك شخص يريد رؤيتك لورا».

تركت الرف، وهتفت: «مرحباً تشارلز».

كان يرتدي بنطلوناً غير مكوي، وقميصاً قطنياً. بدا غير حليق الذقن، وكأنه لم ينم طوال الليل.. بطريقة ما، اقتفى أثرها.. وها هو الآن في غرانتهام.. حيث يعرف الجميع أنها ربحت اليانصيب.. قالت بفظاظة مقصودة، من دون ترحيب: «ماذا تفعل هنا؟».

ـ آمل أن تعرضي علي كوب شاي.. أتقدمينني إلى هذين الشابين؟

وأشار إلى سوآن وكيث اللذين كانا يحدقان فيه بذهول.

تلاشت أخلاقها الطيبة وبدأت تفقد أعصابها. لكنها سحبت نفساً عميقاً، وقالت: «هذه ابنة أخي سوآن، وابن أخي كيث.. هذا تشارلز تورندايك».

وشددت على الاسم وكأنها ترسل إلى تشارلز إشارة لن يفهمها غيره.

قال كيث بأدب: «كيف حالك؟».

وحرك البيض مرة أخرى.

قالت سوآن بلا تحفظ: «هل أنت الرجل من الكوخ المجاور؟».

رفعت لورا عينيها إلى السماء: «أجل.. إنه الرجل من الكوخ المجاور.. وما أريد أن أعرفه.. ماذا يفعل هنا».

تدخلت سوآن بسرعة: «لقد أوقعت الخبز لورا. لم لا تلتقطينه بينما أصب له فنجان شاي.. سأتناول الفطور مع كيث في غرفة الطعام..

قال تشارلز متجهماً: «الدي فكرة أفضل».

سار عبر المطبخ، وأدار لورا إليه، ثم عانقها. رفسته، لكن قدمها أصابت رغيف الخبز. من خلفهما، ارتفع صوت كيث وهو يغني لحناً من أوبرا عايدة.. ويلوح بالملعقة الخشبية.. لا بد أن هذا أثر على تشارلز بقوة.. إذ ترك كتفي لورا وقال: «يا إلهي!».

لكن لورا كانت قد ألفت صوت كيث وعادته في الغناء في المنزل، فقالت غاضبة: «اصمت كيث!».

فما كان من تشارلز إلا أن هزها. فأكمل كيث اللحن، ووضع الملعقة كالسهم فوق قلبه.. نظرت سوآن إلى وجه لورا، وحملت مقلاة البيض وهي تدفع كيث إلى الخارج، ثم أغلقت الباب خلفها.

انحنت لورا والتقطت كيس الخبز، ورمته بقوة على رف المغسلة، ثم ضربت قدمها بالأرض بغضب متفجر، وصاحت: «أكان يجب أن تأتي؟».

- أردت أن أعرف ماذا تخبئين.. ظننت أن زوجك هجرك، أو أنك تعيشين مع مجموعة من العمات المجنونات.. لكنني لا أرى أثراً لأي من هذا.. هل أفتش في السقيفة؟

لم تكن في مزاج للضحك: «من الأفضل أن تعود من حيث أتيت، وتنتظر دعوة لائقة».

- قد أضطر إلى الانتظار طويلاً..

ثم أخذ كرسياً وجلس عليها وكأنه في بيته.

- ماذا عن فنجان الشاي.. لقد قدت السيارة لمسافة بعيدة.. بالمناسبة، لقد أحبني كيث وسوآن.. ما أروع صوته! أفهم الآن لماذا اهتموا به في بسيكاغليا.

قدمت لورا إليه كوب شاي ثم ما لبثت أن قالت بصوت مختنق: «هل تريد قطعة توست؟».

- سيكون هذا رائعاً.. شكراً لك.

وضعت الخبز في الحماصة وقالت بحدة: «لا تكن مهذباً بهذا الشكل اللعين.. كيف وجدتني؟ لم أقل لك أين أعيش».

- لم تقولي.. هذا صحيح.

وأخذ يحرك السكر في الشاي: «بعد رحيلك بالأمس، فكرت أن ألحق بك.. بدت لي هذه أهون الطرق لأعرف مكانك.. لكنني عرفت أن هذا لن يعجبك.. لذا استيقظت باكراً وجئت إلى هاليفاكس. ذهبت إلى المكتبة وفتشت في دليل الهاتف عن وادي أنابوليس، حتى وجدت اسمك.. ماين سنريت، غرانتهام.. أمر سهل».

تأثرت بالرغم منها: «وكيف عرفت مكان المنزل؟».

- توقفت في محطة الوقود في الشارع، وسألت عامل المحطة.

- وماذا قال؟

- قال إن اليوم رائع، مع أننا بحاجة إلى قطرات من المطر.. ومنزل أسرة والكر هو الخامس إلى اليمين بعد شارع «كينغ».

- وهذا كل شيء؟

كان يراقب تلاعب التعابير على وجهها.

- هذا كل شيء.. ولا، لم أكلم غيره.. ما الذي تخافين أن أسمعه لورا؟

قفز الخبز من الحماصة، فأخرجته ودهنته بالزبدة ووضعته في صحن ومررت له سكيناً، ومنديلاً، ومربى... ثم صبت فنجان شاي، من غير أن تنبس ببنت شفة.

دهن تشارلز المربى على زاوية قطعة التوست: «لست أدري مما تخافين لكنني أعرف أنك لم ترتكبي جرماً، وأنه ليس من سر في ماضيك تخجلين منه.. مع أنك لم تصدقي معي، مثلي تماماً، إلا أنني مستعد للمراهنة بحياتي على استقامتك لورا. لقد عرفت فيك امرأة دافئة كريمة. ولا أعتقد أنك بحاجة إلى إخفاء شيء عني».

فجأة، أحست لورا أنها تكاد تبكي.. لقد أكد تشارلز على ثقته بها بكلمات بسيطة، تعرف أنها لن تنساها ما بقيت حية. قالت له يوماً إنها لا تريد أن يظن بها

الظنون.. ولا داعي أن تشك في هذا.

رفعت رأسها، ثم سمحت لمشاعرها أن تظهر أخيراً.

ـ أوه تشارلز.. من الغريب أن تقول هذا.. لأنني أبادلك المشاعر ذاتها. مع ذلك، لا أفهم لماذا كتمت اسمك الحقيقي عني.

ـ أو لم تسمعي أبداً باسم تورندايك؟

ـ لا.

ـ هذا يناسبني.

تراجع عن الطاولة، وتقدم إلى النافذة التي تطل على بساتين التفاح المورقة.

ـ حين قلت إنني جئت إلى هنا لأكتشف ما تخفينه، كنت أقول الحقيقة.. لكنها ليست الحقيقة كاملة.

صمت قليلاً، فاشتعلت لورا توتراً. واستعدت لما هو أسوأ.

ـ جئت كذلك لأقول لك شيئاً.. شيئاً كنت أعرفه منذ مدة، ولو في عقلي الباطني.. لكنه صدمني وكأنه حجر ضخم جداً.. لقد وقعت في حبك لورا.. وأريد الزواج بك.

من الطابق العلوي، تناهى إليهما صوت كيث يغني ثانية.. وكررت لورا: «أنت.. تحبني؟».

ـ هذا ما قلته.

ـ تحب لورا والكر العادية؟

ـ اللامعة، المتخلفة، المسؤولة، المحبة للمرح، النارية الطباع، المحبة.. لورا والكر. وهذا لا يكاد يكون عادياً.

ـ لكنك تحبني لنفسي.

ـ وكيف يمكن أن أحبك لغير هذا لورا؟

وقفت مترددة قرب الطاولة.

ـ تشارلز.. لدي اعتراف.. أملك مليون دولار.

لقد توقع تشارلز رداً على تصريح حبه. لكنه لم يكن يملك أدنى فكرة عمّا تتكلم.. فنظر إليها كأنها مجنونة: «عمَّ تتحدثين بحق الله؟».

ـ أنا ثرية.. منذ شهرين، ربحت اليانصيب.. مليون دولار. وهذا ما أخفيته.. لهذا، لم أرد أن تأتي إلى غرانتهام، فالجميع هنا يعرف هذا.. أنا حديث البلدة.

ـ دعيني أفهم هذا بوضوح. لم ترغبي أن أعرف أنك تملكين مليون دولار.. لماذا؟

ـ لأن بارت طلب يدي لهذا السبب.

ـ إذن؟

ـ أردت أن تكون أنت مختلفاً. أردت أن تطلب يدي لأنك تحبني.. لا لأنك تريد مالي.

ـ وإذا طلبت يدك.. وأردتك أنت.. لا مالك.. فبماذا تجيبني يا لورا والكر العادية؟

شعت ابتسامتها، وأصبحت مليئة بالثقة: «سأقول أجل.. أرجوك.. أود أن أتزوجك».

لمعت عيناه كما يلمع الضوء على الفولاذ.

ـ ولماذا تودين أن تتزوجي بي؟

ـ لأنني أحبك تشارلز ريتشارد تورندايك. كائناً من تكون.

ـ وماذا لو قلت لك إنني فقير معدم لا أملك فلساً؟

ـ ستكفينا المليون دولار حتى ولو طلبت برج الكنيسة.

ـ لكن، ماذا لو قلت لك إن والدي واحد من أغنى عشرين رجلاً في كندا؟

بدا الجد على وجهه.. فتلاشى الرد الخفيف الذي كان على شفتيها.. وقالت ببطء: «هل تعني هذا؟».

ـ أجل.. دايفد ريتشارد تورندايك هو مليونير عصامي، ورئيس مجلس إدارة عدة شركات ويتولى إدارة عشرات غيرها.. رجل من أكثر الرجال سلطة.. هذا هو أبي.

ـ إذن، لا أهمية لمليون دولار في نظرك؟

ـ لا.. فأنا ابنه الوحيد، ووريثه، وبكل تأكيد لا أحتاج إلى مالك.. لا

تقلقني أبداً من هذا الأمر لورا.

بدأت تفهم شيئاً فشيئاً.. وقالت بمكر: «الكنك خشيت أن أسعى وراء مالك كذلك؟».

- كلما ازدادت معرفتي بك، كلما تقلصت هذه الإمكانية.. ولأول مرة في حياتي أردت أن يحبني أحد لنفسي.. في اونتاريو، كنت الرجل المميز، وريث الثروة.. فرمت النساء بأنفسهن عليّ.. أنا وحفظتي.. لكن في الكوخ، كنت تشارلز رينشاردز الذي وقع في حب لورا والكر بسرعة غريبة.

- إذن.. أنت لم ترغب أن تخبرني عن ثروتك، وأنا لم أرغب أن أخبرك عن ثروتي.. تشارلز.. يا لغبائنا!

- ليس تماماً.. فأنت تعرفين كم أردت أن تهتمي بي.. وبي وحدي، لا بوريث ثروة تورندايك، وكلما همني هذا أكثر، كلما تعاظم خوفي مما تخبئين.

سمعت لورا كلماته وما وراء كلماته: «تشارلز.. عانقني..».

أغمضت عينيها، وسمعته يضحك: «سأطيع بسرور».

تعانقا لوقت طويل. كان عناق حب وضحك، واكتشاف.. وبجمل مكسرة، بدآ يتعلمان لغة الحب الحميمة التي يتبادلها حبيبين جديدين. همست له لورا بما لم تهمسه في أذن أحد من قبل. ستبقى تلك الكلمات تلتمع كجواهر في زاوية من زوايا قلبها.

هنا، صدح صوت كيث، وهو يقترب من باب المطبخ، ثم أنهى جملته الموسيقية ليقول بلباقة: «عفواً لورا.. أما زلتما هنا؟».

أجابته والاحمرار يعلو وجنتيها. أما تشارلز فشدها إليه.

- ادخل كيث، عليك الأمان.

دخل كيث وهو يحمل المريلة الحمراء، ومقلاة البيض المخفوق. رفع حاجبيه بطريقة مؤثرة حين رآهما متقاربين.. ونادى من فوق كتفه: «تكسبين سوآن».

والتفت إليهما: «قالت إنكما مغرومان».

قال تشارلز: «فتاة ذكية.. عمتكما ستتزوجني».

كانت سوآن تقف في الردهة وراء كيث. حين سمعت تشارلز، صاحت

ابتهاجاً، ورمت بنفسها عليهما، وهي تضمهما من غير تمييز.

- كم أنا سعيدة! لورا.. أيمكن أن أكون وصيفة العروس؟ أنا مسرورة لأنك لن تتزوجي بارت.. كنت خائفة من هذا.

رفعت وجهها الصغير النشيط إلى تشارلز: «أنت رجل ضخم».

علقت لورا بجفاء: «هذا إطراء كبير».

تقدم كيث بوقار، وصافح تشارلز. ثم قال بحرارة: «أهنئكما».

وقبل لورا بحرارة مماثلة.

كانت سوآن تؤمن بالإجراءات العملية: «متى يتم الزواج؟».

ابتسم تشارلز ونظر إلى لورا: «لم نناقش هذا بعد.. فلتتزوج في الخريف حبيبتي، قبل أن أذهب إلى تورنتو.. بما أنني سآتي إلى هنا بالطائرة في كل نهاية أسبوع، فمن الأفضل أن نكون متزوجين.. وإلا تكلم الجيران عنا.. فما رأيك؟».

- أتعني أنك ستتزوجني خوفاً من كلام الجيران؟

- تعرفين جيداً لماذا سأتزوجك.. لأنني أحبك حباً مدمراً ولا أستطيع العيش بدونك.

ثم لمح عيني سوآن المتسعتين، وبدأ يضحك: «وسيكون لنا أحلى وصيفة عروس.. ألا توافقيني الرأي؟».

قالت لورا: «بكل تأكيد.. شهر أيلول سيكون شهراً رائعاً للزواج.. يمكن لكيث أن يغني، أما دارين فسيسلمني إلى العريس».

سأل كيث بارتياب: «وهل يفعل هذا؟».

ردت ببطء: «أجل.. أجل.. أظنه سيفعل.. تشارلز، يجب أن نذهب إلى المستشفى بعد الظهر.. أريد أن نقابله».

قال كيث بصراحة: «وفي هذه الأثناء، سأحضر مندوبيات النقانق و«السلامي» والمرطبات للغداء».

قالت سوآن: «وأنا سأصعد إلى غرفتي لأرتدي ثيابي».

ابتسمت بلطف لتشارلز. وقالت: «سيصفو لكما الجو لنصف ساعة».

وهربت ضاحكة قبل أن ترد لورا.

وخلا المطبخ لهما.. فقال تشارلز: «عائلة جاهزة».

ـ وهل تمانع؟

ـ أمانع؟ بل أحب هذا. فلقد كنت طفلاً وحيداً، ألا تذكرين؟

ـ طفلاً كانت أمه تشتري له قالب حلوى جاهز في عيد ميلاده.

ـ أجل.. أما والده، فكان مشغولاً دائماً بجني المال، لا بد أنك أدركت الآن أن المخابرة التي استمعت إليها في الكوخ، كانت من أبي.. وخشيت يومها أن تكوني قد سمعت بداية الحديث حين طلبته بالاسم، وتربطي الاسم بالمال الذي نملكه، وبهذا تكتشفين هويتي.. في تلك المرحلة أردت أن أكون تشارلز ريتشاردز.. لا تشارلز تورنداليك.

ـ ولهذا كنت غاضباً.

ساد صمت طويل، ثم قال وذراعاه تحتضنانها:

ـ نادراً ما نتقابل، أنا وأبي، وجهاً لوجه. ومن الأفضل أن أحذرك من هذا منذ الآن. بعد أن تخرجت من الجامعة، عملت لحسابه لثلاث سنوات.. عرفت حينها أننا لا نملك الأفكار ذاتها. تشاجرنا كثيراً، ثم بدأت أعمل وحدي.. أخيراً، انطلقت حول العالم لسنتين. كان معي خمسمائة دولار، فتنقلت من عمل إلى آخر. ثم عدت إلى الوطن ومعي مئتان وستة وثلاثون دولاراً وخمسة عشر ستاً.. كان علي أن أقوم بهذا لورا. كان عليّ أن أثبت لنفسي أنني قادر على العيش من دون مال أبي.. أما الكوخ، فهو ملك لأحد أقرباء أمي.. كنت أمضي الصيف فيه لأراجع كل ما تعلمته. وسأعود إلى تورنتو في الخريف.. لكن حسب شروطي.

أحست لورا أن في كلماته القليلة الكثير من الخبرة.. وفكرت بسعادة، أنه سيكون لها منع من الوقت لتعرف التفاصيل.

ـ وما هي شروطك؟

ـ في سكوتش باي، بدأت بتدريب فريق كرة سلة، يضم حفنة أولاد كانوا يتسكعون في الشوارع.. فإذا بنينا ملعباً مقفلاً واستأجرنا بعض المدربين، نستطيع

أن نفعل الأعاجيب.. سأعتمد أولاً على مصالح والدي المختلفة، مصانع، ومناجم، وما إلى ذلك، وأرى كيف يمكنني أن أحسن أوقات الراحة، وظروف عمل الموظفين.. وسآخذ وقتي لأدرس كل وضع على حدة.. وأصرف المال بحكمة.. إحساسي ينبئني أن الانتاج سيزداد على المدى الطويل.. في النهاية سأتوصل إلى إقناع أبي.

قالت صادقة: «أعتقد أنك ستنجح في هذا».

تذكرت جهده مع فريق كرة السلة، وعرفت أنه يهتم بالناس، ولا يخاف أن يحوّل هذا الاهتمام إلى عمل.

ـ لكن.. تشارلز، إذا ذهبت أنا إلى كلية الطب في تورنتو، وسافرت أنت في البلاد.. فهل سيكون زواجنا ناجحاً؟

رد بثبات: «أجل، سنشتري منزلاً في تورنتو بالقرب من الجامعة، وستكون هذه البداية. وأنا واثق أننا سنضطر إلى العمل الجاد أكثر من بقية المتزوجين، حتى يتسنى لنا أن نقضي وقتاً معاً. لكن الوقت الذي سنقضيه سوياً، سيكون مميزاً، وسنستغله تماماً».

نظر إلى ساعته: «مثلاً.. أمامنا بضع دقائق وحدنا في المطبخ، قبل أن تعود سوآن لتتحدث عن فستان الوصيفة. ويصل كيث بالغداء.. فدعني أعبّر لك عن مدى حبي».

وهذا ما فعله.

* * *